الخلافة الراشدة

والأيدي الخفية

بحث وثائقي

تأليف

السيد الراضي — عبد الرحمان باحمان

جمال أمين — محمد بوبلي

الطبعة الثالثة للكتاب
الطبعة الأولى للناشر
١٤١٥هـ - ١٩٩٥م

ملتزم التوزيع



دار القلم للنشر والتوزيع
٣٦ ش القصر العينى - الدور الثانى/شقة ٤
تليفون وفاكس : ٣٥٥١١٠٥
ص.ب : ٦٥ مجلس الشعب - القاهرة



دار القلم للنشر والتوزيع
شارع السور - عمارة السور - الطابق الأول
هاتف : ٢٤٥٧٤٠٧ - ٢٤٥٨٤٧٨ - برقيا توزيعكو
ص.ب ٢٠١٤٦ الصفاة 13062 الكويت

الخلافة الراشدة

والأيدي الخفية

بحث وثائقي


بسم الله الرحمن الرحيم

تقـــديــــم

الحـوار دون استعلاء أو تعصب، ودون تشنج أو فرض وصاية، هو أسلوب الاسـلام المفضـل في التعامل مع الآخرين، ومنهجه في عرض مبـادئه والدعوة إليها : ﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن﴾، ﴿فذكر إنما أنت مذكر، لست عليهم بمسيطر﴾.

وهذا الحوار أيضا هو الطريق الذي سيمكن من بناء المستقبل وإغناء الفكـر والتفـاهم على القضـايا المصـيرية والهموم المشتركة وهي القضايا والهموم التي يجب أن توضع على بساط البحث والنقاش. . .

وحل كثير من القضايا التي ثار حولها الجدل، وتعددت فيها الرؤى في السـاحة الفكرية يحتاج إلى حوار موضوعي هادىء، بعيدا عن التراشق اللفظي والاتهام المنفعل، وهو حوار لا يكسب أهميته إلا إذا تواضع الجميع على نشـدان الحقيقـة والبعـد عن أسلوب الإثارة والتخلي عن التعصب والاعتراف بالحق ولو نطق به المخالف.

وربـما تكـون السـاحـة الفكـرية اليوم ببلادنا أقرب إلى روح الحوار والتفـاهـم منهـا في أوقـات مضت، وخصـوصا عند مناقشة أمور تتصل بالاسلام وقضاياه.

وربـما يكون التدافع الفكري والثقافي اليوم أبعد عن طابع التشنج والضيق بالمخالفين. . وأقرب إلى الجدال بالتي هي أحسن في فترة يشهد العالم كله إيثار سياسية الحوار والتفاهم على أسلوب العداء والتصارع.

وإيماناً منا بضرورة تدعيم الحوار الموضوعي الهادىء والمعالجة الفكرية المنظمة، ودعماً له ومساهمة فيه، بدأنا إصدار هذه السلسلة التي أسميناها سلسلة «الحوار»، لتحمل إلى المهتمين دراسات وإبداعات في الثقافة الاسلامية.

ونؤكد من الآن أن السلسلة لا تتبنى بالضرورة الآراء والأفكار الواردة في تلك الدراسات، بل هي اجتهاد وعطاء فكري لأصحابها، ننشرها لأن من أبجديات الحوار احترام تعدد الآراء والرؤى، ونضعها بين أيدي المهتمين للدراسة والبحث، والنقد والتمحيص والحوار ﴿وفي ذلك فليتنافس المتنافسون﴾.

الحـوار

مقدمة

إن الموضوع الذي يطرحه هذا البحث أتاه الكثيرون من بين يديه ومن خلفه، وعن يمينه وعن شماله، وعرضوه في أكثر من واجهة : لقد عرضوه في واجهة التاريخ، وفي واجهة الفكر الاسلامي وعلم الكلام، وفي واجهة الأدب . . . إلخ، سواء في إطار الدراسات التي توصف بأنها تقليدية، أو في إطار الدراسات التي توصف بأنها مشاريع قراءة جديدة.

وإذا كان هذا الموضوع معروضا في كل هذه الواجهات، فماذا عسى أن نقدم فيه نحن أو نؤخر؟ وما الداعي لإعادة طرحه من جديد؟ أليست هناك مواضيع أخرى أكثر إلحاحا وأكثر فائدة؟ أليس من اللائق أن نطوي صفحات الماضي البعيد، وننشر صفحات الحاضر والمستقبل؟

تلك أسئلة شعرنا بها تتفاعل في أذهاننا، وتتزاحم للظهور، ولكننا مع ذلك وجدنا أنفسنا منجذبين لهذا الموضوع لعدة أسباب نجملها فيما يلي :

١- لأن الكثيرين ممن طرحوا هذا الموضوع، طرحوه بأسلوب يغلب عليه التعسف، ويسيطر عليه الخضوع المسبق لمقولات جاهزة.

٢- لأن كثيرا من الروايات التاريخية التي يستشهد بها هؤلاء كأدلة للإقناع والتأثير، ينقصها الشرط الأساسي في الكتابات التاريخية الجادة، ونعني به توثيق الروايات، وعرضها قبل توظيفها على موازين الجرح والتعديل، وبدون هذا الشرط يقع الخلط بين التاريخ والخيال، وبين الحقائق والأساطير.

ولعل من أوضح البدهيات أن كتب التاريخ والسير تجمع الغث والسمين، والصحيح والسقيم :

وليعلـم الـقـارىء أن السيـرا ٪ تأتي بما صـح وما قـد أنكـرا

وكمثـال على ذلـك نذكر كتاب «الامامة والسياسة» المنسوب لابن قتيبة، ففيه من الأباطيل ما يندى له الجبين، ولا غرابة فهو كتاب مزور، لم تصح نسبته إلى ابن قتيبة كما نص على ذلك العلماء المحققون.

ونـذكـر كتـاب «مـروج الـذهـب» للمسعـودي، وهو مليء بالبدع والأباطيل، لأن مؤلفه من كبار الشيعة، وله في نحلتهم مؤلفات، «ومن طبيعة التشيع والتحزب والتعصب - كما قال محب الدين الخطيب - البعد بصاحبه عن الاعتدال والانصاف»[1]

ونذكر الكتاب الأدبي «الكامل» للمبرد، ففيه روايات ضعيفة تطعن في أفاضل الأمة، وصاحبه «ينزع إلى شيء من رأي الخوارج وله فيهم هوى، وإن إمامته في اللغة والأدب، لا تغطي على ضعفه في علم الرواية والإسناد»[2]

ونـذكـر كتـاب «تاريخ التمدن الإسلامي» لجورجي زيدان، ففيه تحامل واضح وتشويه مكشوف لكثير من حقائق التاريخ، وشهادة العدو على عدوه غير مقبولة شرعا وعقلا

ونذكر «دائرة المعارف الإسلامية» التي ألفها أكثر المستشرقين حقدا على الإسلام والمسلمين، وأفرغوا فيها ما في جُعبتهم من الطعون[3].

وعلى العموم فثمة تياران تحكّما في بعض الدراسات التاريخية المعاصرة وأوقعاها في خطيئة التحريف :

أ - تيـار التشيـع : ويمثله الكتب التي ألفهـا الشيعـة، مثـل : «السقيفـة» لمحمـد رضـا المُظفـر، و«بحث حول الولاية» لمحمد باقر الصدر[4] وغيرهما.

١- العواصم من القواصم - ص : ٢٤٩.

٢- نفس المصدر والصفحة.

٣- انظر ما يتعلق بهذه «الدائرة» في كتاب : «الفكر الاسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي» لمحمد البهي.

٤- رغم جلال قدر هذا الرجل وإتقانه لدراسة الفلسفة والاقتصاد الاسلاميين، فإنه يجب أن يُحذَر فيما يتعلق بالعقيدة والتاريخ والسير.

ب ـ تيار تطغى عليه المادية والإسقاط المذهبي المتعسف: مثل «الحركات السرية» لمحمود إسماعيل، و«النزعات المادية» لحسين مروة، و«الفتنة الكبرى» لطه حسين، و«عثمان بن عفان» لمحمد حسين هيكل، و«اليمين واليسار في الإسلام» لأحمد عباس صالح وغيرها.

قال محب الدين الخطيب: «امتلأ التاريخ الإسلامي بالأكاذيب، ولن تتجدد للمسلمين نهضة إلا إذا عرفوا سلفهم على حقيقته، واتخذوا منه قدوة لهم، ولن يعرفوا سلفهم على حقيقته إلا بتطهير التاريخ الاسلامي مما ألصق به»[٥].

٣- لأن المقام المستهدف بالتشويه والتزوير مقام من طراز فريد، إنه مقام الصحابة الأجلاء الذين تخرجوا من مدرسة النبوة، وتربوا على يد من لا ينطق عن الهوى، وأصبحوا بذلك نماذج إنسانية عالية، يُضرب بها المثل في العدالة والاستقامة والاخلاص، ومسُّ هؤلاء بسوء، ومحاولة تشويه سمعتهم، والعمل من أجل التقليل من شأنهم، كل ذلك يحسبه البعض هينا، وهو عند الله والمسلمين عظيم، لأن مسهم رضي الله عنهم مسّ للدين نفسه، إنهم وعاته وحُفاظه، ونقلته وشراحه، وبجهودهم المخلصة وصل نوره الوهاج إلى بقاع المعمور، وفي هذا المعنى قال إمام عصره أبو زُرعة الرازي[٦]- وهو من أَجَلِّ شيوخ مسلم: «إذا رأيت الرجل ينتقص أحدا من أصحاب رسول الله ﷺ فاعلم أنه زنديق، وذلك أن الرسول ﷺ حق، والقرآن حق، وما جاء به حق، وإنما أدى إلينا ذلك كله الصحابة، فمن جرحهم إنما أراد إبطال الكتاب والسنة، فيكون الجرح به ألصق، والحكم عليه بالزندقة والضلالة والكذب والفساد هو الأقوم الأحق»[٧].

أفليس من حق هؤلاء الصحابة الكرام علينا، إنصافاً لهم، واعترافا لهم ببعض الجميل، وحماية للإسلام من ضربات أعدائه الماكرين أن

٥- العواصم ـ ص: (٥٢)

٦- هو عُبيد الله بن عبد الكريم الرازي، من موالي بني مخزوم، كان أحد أعلام الأئمة. قال عنه الامام أحمد: «ما جاز الجسر أحفظ من أبي زرعة». وقال أبو حاتم: «إن أبا زُرعة ما [illegible] بعده مثله». توفي سنة: ٢٦٤هـ (العواصم ـ ص: ٣٤).

٧- مقدمة الصواعق المحرقة ـ ص: ل.

نرفع عنهم ما لحقهم من حيف ونزيل عن رفاتهم الطاهر ما أنقله به سوء الظن، وسوء الفهم، والتسرع في الحكم ؟

٤- لأن هناك أيادي خفية، شاركت بحظ وافر، في نسج خيوط المأساة، ورسم الملامح الكالحة لبعض الأحداث، فلابد من الكشف عنها، ليظهر المجرم الخفي، وتتضح المؤامرة المحبوكة، وترفع التهمة عن الأبرياء، وبدون هذا، سنظل نجني على الناس، وندور في فراغ.

٥- لأن فهم الماضي بعمق، واستلهام ما احتضنه من تجارب، واستخلاص ما ينطوي عليه من عبر، ضروري لسلامة الانطلاق إلى المستقبل عبر الحاضر.

٦- لأن كثيرا من الاستفسارات المتعلقة بهذا الموضوع، وجهت إلينا من طرف تلامذتنا الأعزاء، الذين يعز علينا أن نتركهم في حيرة، ونعرضهم للفتنة.

٧- لأن النبي ﷺ : قال : «إذا ظهرت الفتن - أو قال البدع - وسُب أصحابي فليُظهر العالم علمَه، فمن لم يفعل ذلك فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه صرفا ولا عدلا»[٨].

هذه أيها القارىء الكريم - أهم الأسباب التي حملتنا على إثارة موضوع «الخلافة الراشدة» من جديد، وقد يلاحظ في الموضوع بعض القصور، ولنا عذر في ذلك لندرة المراجع، ولكوننا غير متخصصين في هذا المجال، فنحن مجرد قُراء وجدنا أن الصورة التي تقدمها المصادر الموثوقة للصحابة الأجلاء رضوان الله عليهم تتناقض مع ما يروج في الساحة حول القضايا التي يطرحها هذا البحث، فالهدف الأول لدينا هو توثيق المعلومات، واستثارة همم المسلمين للبحث في تاريخهم، وكل رد مقنع سنتلقاه بصدر رحب.

اللهم جنبنا العثرة، واغفر لنا ما أخطأنا فيه في اجتهادنا، وأثبنا على ما أصبنا فيه، واجعله عملا في كفة حسناتنا يوم تبيض وجوه وتسودّ وجوه.

والحمد لله رب العالمين. **(المؤلفون)**

٨- أخرجه الخطيب البغدادي في كتابه : «الجامع بين آداب الراوي والسامع»، وأخرج نحوه ابن عساكر في «تاريخ دمشق».

الباب الأول

تولية الخلفاء الراشدين
ولمحات من مظاهر عدالتهم

تمهيد :

أهمية الخلافة وضرورتها الدينية والدنيوية :

الخلافة عند المسلمين : تعني الرئاسة العامة، وترادفها : الامامة العظمى، ويعرف الماوردي الامامة بأنها : «موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا»[1].

ويتضح ذلك أكثر من قول ابن خلدون : «والخلافة هي : حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها، إذ أحوال الناس ترجع كلها عند الشرع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة، فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا»[2].

فالخلافة إذن تمثل السلطة العليا التي تنفذ ما شرعه الله تعالى وبلغه نبيه ﷺ.

وللخلافة أهمية خاصة في نظر الإسلام لأنها تلعب دورا كبيرا في استقرار الأوضاع وانتظام الشؤون العامة واستقامة الحياة.

فلابد منها دنيويا لإحقاق الحق وإبطال الباطل، ولابد منها لرفع الظلم عن المظلومين وإيصال الحقوق إلى أصحابها الشرعيين، ولابد منها لفض المنازعات التي تحدث بين الأفراد والجماعات.

ولابد منها دينيا لإقامة شعائر الدين وإعلاء كلمة الله وحماية المقدسات والذوْد عن الحياض والدفاع عن الحرمات.

١- الأحكام السلطانية - ص ٣.

٢- المقدمة - ص ١٨٠.

إن الخلافة إذن منصب ديني ودنيوي في نفس الوقت : لأن إقامة الحياة الدنيا على أسس الفضيلة والكرامة، وعمارة الأرض بالعدل والحرية والإخاء، وتوفير الظروف المناسبة لإقامة صرح التعاون بين أفراد المجتمع، تحتاج إلى خلافة تنظم الحياة وتطرد عنها أشباح الفتنة والاضطراب :

لا يصلُح الناس فوضى لا سراة لهم . ولا سراة إذا جُهالهم سادوا
تبقى الأمور بأهل الرأي ما صلحت فإن تولّت فبالأشرار تنقادُ

ولأن إقامة الحدود، وتغيير المنكر، وحمل الناس على إتيان الواجبات وترك المحرمات، وإزالة العقبات في طريق الاسلام، تحتاج كذلك إلى سلطة قوية تسهر على هذه المهام وتلعب هذه الأدوار «إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن» .

ونظرا لأهمية الخلافة أجمع الصحابة الكرام على أن نصب الامام بعد انتهاء زمن النبوة واجب[٣]، بل جعلوه أهم الواجبات لدرجة أنهم انشغلوا به عن دفن رسول الله ﷺ، فبمجرد ما أعلن أبو بكر الصديق رضي الله عنه في خطبته المشهورة وفاة النبي ﷺ قال : «ولابد لهذا الأمر ممن يقوم به، فانظروا وهاتوا آراكم» فقالوا : «صدقت ننظر فيه»[٤] قال ابن حجر الهيثمي : «ووجه ذلك الوجوب أنه ﷺ أمر بإقامة الحدود وسد الثغور وتجهيز الجيوش للجهاد وحفظ بيضة الاسلام، وما لا يتم الواجب المطلق إلا به وكان مقدورا فهو واجب، ولأن في نصبه جلب منافع لا تحصى، ودفع مضار لا تستقصى، وكل ما كان كذلك يكون واجبا»[٥].

وإذا كان البعض يذهب مع الخيال أكثر من اللازم ويمعن في التحليق في أجواء الطوباوية ويتصور إمكان الاستغناء عن السلطة والدولة عندما يصل الناس إلى مستوى معين من النضج والوعي، فإن الاسلام ارتباطا منه بواقع

٣- انظر أدلة هذا الوجوب في كتاب : «الاسلام وأوضاعنا السياسية» - ص ٩٤ - ١٠١ وفي «الاسلام». لسعيد حوى - ج ٢ - ص : ١٤٣ - ١٤٦ .

٤- الصواعق المحرقة - ص : ٨

٥- المصدر نفسه - ص : ٨

حياة الانسان ومراعاة لظروفه النفسية والاجتماعية لا يرى إمكان الاستغناء عن سلطة عليا تقيم العدل وترد الشاردين إلى المسار الصحيح .

وقد بلغ اهتمام الاسلام بتنظيم الحياة وقطع دابر الاضطراب والاختلال ذروته العليا عندما أمر كل ثلاثة جمعتهم الظروف ولو لمدة قصيرة ـ كما هو الشأن في السفر ـ أن يؤمروا عليهم أحدهم حتى لا تختلف آراؤهم ويتشتت شملهم ويفسد اجتماعهم وينفرط عقد التعاون بينهم ، قال ﷺ : «إذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمروا عليهم أحدهم»[٦] وقال ﷺ : «لا يحل لثلاثة يكونون بفلاة من الأرض إلا أمروا عليهم أحدهم»[٧]. قال الشوكاني : «لأن في ذلك السلامة من الخلاف الذي يؤدي إلى التلاف. فمع عدم التأمير يستبد كل واحد برأيه ويفعل ما يطابق هواه فيهلكون ومع التأمير يقل الاختلاف وتجتمع الكلمة ، وإذا شرع هذا لثلاثة يكونون في فلاة من الأرض أو يسافرون ، فشرعيته لعدد أكثر يسكنون القرى والأمصار ، ويحتاجون لدفع التظالم وفصل التخاصم أولى وأحرى»[٨]

٦- رواه أبو داوود وغيره .

٧- رواه أحمد وغيره .

٨- نيل الأوطار ـ ج : ٩ ـ ص : ١٥٧ .

الفصل الأول
مشروعية تولية الخلفاء الراشدين

تعرضت الخلافة الراشدة للتشويه من طرف الكثيرين، واتهم الصحابة بالتواطؤ مع بعضهم ضد البعض، كما نفي العدل عن طائفة منهم، وكل هذه الاتهامات المغرضة لا قيمة لها كما يتجلى فيما يلي :

أ ـ تولية أبي بكر الصديق رضي الله عنه :

انطلاقا مما سبق أن أشرنا إليه من وجوب الإمامة وإيمانا من الصحابة الأجلاء بما لهذا الأمر من أهمية، سارعوا رضي الله عنهم بعد وفاة رسول الله ﷺ للتشاور فيمن يسندون إليه أمرهم خلال لقاء السقيفة، وحتى لا نخطىء ـ كما أخطأ الكثيرون ـ في فهم ما حدث في السقيفة نرى أنفسنا مضطرين لتوضيح النقط الآتية :

١- اجتماع الصحابة رضي الله عنهم بالسقيفة :

بعد موت النبي ﷺ اجتمع الأنصار في سقيفة بني ساعده[٩] للتشاور فيمن يكون خليفة للمسلمين، إيمانا منهم بأن الأمر لا يستقيم بدون خليفة. وهذا الاجتماع يطرح مجموعة من التساؤلات، منها :

٩- السقيفة : الظلة، وهي بهو واسع طويل السقف. وكان لبني ساعدة بن كعب بن الخزرج «وهم حي من الأنصار، ومنهم سعد بن عبادة نقيبهم» ظلة يجلسون تحتها، وهي دار ندوتهم لفصل القضايا، اشتهرت بسقيفة بني ساعدة.

■ لماذا سارع الأنصار إلى الاجتماع ؟ ■ ولماذا لم يستشر المهاجرون -وهم السابقون الأولون- في شأنه ؟ ■ وعمَّ أسفر ذلك الاجتماع .

إن القضية هي قضية الحرص على مصلحة الاسلام والمسلمين لا ما يروجه بعض المغرضين من أنها محاولة للاستئثار بالسلطة، يقول الطبري نقلا عن سيف بن عمر[10]: «قال عمرو بن حريث لسعيد بن زيد : أشهدت وفاة رسول الله ﷺ ؟ قال : نعم، قال : فمتى بويع أبو بكر ؟ قال : يوم مات رسول الله ﷺ، كرهوا أن يبقوا بعض يوم وليسوا في جماعة»[11] خصوصا وأن وضعية المسلمين لم تستقر بعد، لتربص الأعداء بهم كقطاع المنافقين وجهلة الأعراب والمتنبئين بالاضافة إلى القوى الخارجية من فرس وروم . . .

لقد كان الأنصار رضي الله عنهم يظنون أن ما امتازوا به من كونهم سكان المدينة الأصليين ومن مناصرتهم للنبي ﷺ، وإيواء المهاجرين، والدفاع عن الاسلام، يرشحهم - دون غيرهم لِـخلافة النبي ﷺ .

لكنه عندما أُخبر أبو بكر وعمر رضي الله عنهما باجتماعهم أرادا أن يتداركا الأمر حتى لا يتسرب الخلاف إلى صفوف المسلمين، وتنحرف الأمور عن مجراها الطبيعي، ويدب الوهن والضعف في دولتهم - وهي في بداية الطريق - فأسرعا إلى السقيفة ومن خلفهما جمع كبير من المهاجرين، ولقيهما أبو عبيدة[12] رضي الله عنه فانضم إليهما. وحينما التحقوا بالأنصار ابتدر الحديث خطيبهم، فكان من ضمن ما قال : «أما بعد فنحن أنصار الله وكتيبة الاسلام، وأنتم يا معشر المهاجرين حي منا»[13]، فلما سكت أراد عمر رضي الله عنه أن يتكلم فأسكته أبو

١٠- وهو سيف بن عمر الأسدي الضبي، كوفي الأصل، توفي ببغداد في خلافة الرشيد سنة : ٢٠٠هـ، وقيل سنة ١٨٠هـ . جاء في «ميزان الاعتدال» أنه «كان اخباريا عارفا» وفي تقريب التهذيب «أنه ضعيف في الحديث عمدة في التاريخ»، وقد اعتمد عليه الطبري كثيرا في تاريخ حوادث صدر الاسلام، وما ألفه من كتب قد ضاع، ولم يبق إلا ما اقتبسه منه الطبري وغيره .

١١- تاريخ الأمم والملوك - ج : ٣ - ص ١٠٧ .

١٢- هو عامر بن عبد الله الجراح، أحد العشرة المبشرين بالجنة، شهد المشاهد كلها، وسماه النبي ﷺ أمين الأمة، قاد المسلمين في فتوح الشام، وتوفي سنة : ١٨هـ .

١٣- التاريخ الاسلامي - ج : ٣ - ص : ٤٩ .

بكر رضي الله عنه، ثم وقف وقال : «أما بعد : فما ذكرتم من خير فأنتم أهله، ولم تعرف العرب هذا الأمر إلا لهذا الحي من قريش[١٤]، فهم أوسط العرب دارا ونسبا، وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين (يعني عمر وأبا عبيده) فبايعوا أيهما شئتم»[١٥]. فقال الحباب بن المنذر[١٦] رضي الله عنه : «أنا جُذيْلها المحكَّك[١٧]، وعذيقها المرجّب[١٨]، منا أمير ومنكم أمير»[١٩]. وهو هنا ـ ولا شك ـ يدعو إلى ثنائية الإمامة، وهو موقف لم يُدرك الحباب رضي الله عنه أبعاده الخطيرة، لأن ذلك يؤدي ـ لو تم ـ إلى تمزيق الأمة وتشتيت صفوفها، ولذلك رد عليه عمر رضي الله عنه بقوله فيما رواه الزهري : «لا يصلح سيفان في غمد، ولكن منا الأمراء ومنكم الوزراء».

وبعد مناقشات وتدخلات من الطرفين قام بشير بن سعد الأنصاري[٢٠] رضي الله عنه فقال : «يا معشر الأنصار : إنا والله لئن كنا أولي فضيلة في جهاد المشركين، وسابقة في هذا الدين، ما أردنا به إلا إرضاء ربنا وطاعة بينا، والكدح لأنفسنا، فما ينبغي أن نستطيل بذلك ولا نبتغي به من الدنيا عرضا، فإن الله ولي المنة علينا بذلك، إلا أن محمدا ﷺ من قريش، وقومه أحق به وأولى، ولا يراني الله أنازعهم في هذا الأمر أبدا، فاتقوا الله ولا تخالفوهم ولا تنازعوهم»[٢١]. ورأيه هذا يستند إلى القرآن الكريم الذي يُعطي الأولوية للمهاجرين قبل

١٤- من أراد الزيادة في التوضيح حول حديث : «الأئمة من قريش» فليراجع «العواصم من القواصم» ص : ٤٣ – ٤٤ ـ و«الاسلام» لسعيد حوى ج : ٢ – ص : ١٤٩ – ١٥١ - و«الاسلام وأوضاعنا السياسية» ص : 104 ـ 109 ـ وكذلك مقدمة ابن خلدون.

١٥- التاريخ الاسلامي ـ ج : ٣ – ص : ٥٠ .

١٦- هو من الأنصار، شهد بدرا والمشاهد كلها، ويعرف بذي الرأي، توفي في خلافة عمر.

١٧- جذيلها المحكك : هو أصل شجرتها الذي تتحكك به الابل.

١٨- عذيقها المرجب : نخلتها التي دعمت ببناء أو خشب لكثرة حملها، وهو كناية عن أنه الشخص الذي يُعطي الرأي الصائب في هذا الأمر.

١٩- العواصم ـ ص ٤٠ .

٢٠- بشير بن سعيد الأنصاري الخزرجي، شهد بيعة العقبة الثانية، وحضر المشاهد كلها، استشهد . ١٢ هـ

٢١- التاريخ الاسلامي ـ ج : ٣ – ص : ٥١ .

الأنصار : ﴿والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه﴾[٢٢].

وهكذا انحصر أمر الخلافة في المهاجرين بعد أن ردوا حجج الأنصار. وانتهى الأمر إلى مبايعة أبي بكر الصديق رضي الله عنه من طرف المهاجرين والأنصار معا، بمن فيهم سعد بن عبادة[٢٣] رضي الله عنه، يدل على ذلك ما أخرجه أحمد قال : «إن أبا بكر لما خطب يوم السقيفة لم يترك شيئا أنزل في الأنصار، وذكره رسول الله ﷺ في شأنهم إلا ذكره وقال : «لقد علمتم أن رسول ﷺ قال : لو سلك الناس واديا وسلكت الأنصار واديا لسلكت وادي الأنصار، وقد علمت يا سعد أن رسول الله ﷺ قال : -وأنت قاعد- : قريش ولاة هذا الأمر، فبر الناس تَبَعٌ لبرهم وفاجرهم تبع لفاجرهم» فقال له سعد : «صدقت، نحن الوزراء وأنتم الأمراء»[٢٤]. قال ابن حجر الهيثمي : «ويؤخذ منه ضعف ما حكاه ابن عبد البر أن سعدا أبى أن يبايع أبا بكر حتى لقي الله»[٢٥].

٢- موقف الامام علي رضي الله عنه :

ويهمنا موقف علي رضي الله عنه نظرا لأن المغرضين من الشيعة يستغلون قرابته من الرسول ﷺ لإثبات ما يؤمنون به من الوصية له[٢٦]. والصحيح أن عليا رضي الله عنه أجل من أن يكون له موقف كالذي تبنته الشيعة أو كالذي نسبه إليه محمد عمارة بقوله : «فعلي لم يمتنع عن بيعة أبي بكر إلا لأنه قد رأى نفسه الأحق بهذا الأمر»[٢٧] بل أن عليا قد بايع

٢٢- سورة التوبة - الآية ١٠٠ .

٢٣- من كبار الأنصار، شهد العقبة وكان أحد النقباء، اشتهر بجوده، وبحمله لراية الأنصار في كثير من المواقف، خرج إلى الشام بعد بيعة أبي بكر، وتوفي بحران سنة : ١٥ وقيل : ١٦. (أنظر ترجمة في «الاصابة» و«الاستيعاب»).

٢٤- المسند ج : ١ - ص ١٢٨ - ١٢٩ .

٢٥- الصواعق المحرقة ص ١٢ .

٢٦- سيأتي أن «الوصية» من مبادىء حركة ابن سبأ التي اعتنقها الشيعة فيما بعد .

٢٧- الخلافة ونشأة الأحزاب الاسلامية ص ٩٩ .

أبـا بكـر رضي الله عنه بيعة شرعية إيمانا منه بأحقيته، يدل على ذلك النصوص التالية :

* عن حبيب بن أبي ثابت قال : «كان علي إذ أتي فقيل له : قد جلس أبو بكر للبيعة فخرج في قميص ما عليه إزار ولا رداء عجلا كراهية أن يبطىء عنها، حتى بايعه، ثم جلس إليه وبعث إلى ثوبه فأتاه فتجلله ولزم مجلسه»(٢٨).

* أخرج الدارقطني -وروي معناه من طرق كثيرة- عن علي رضي الله عنه أنه قال : «والذي فلق الحبة وبرأ النسمة لو عهد إلي رسول الله ﷺ عهدا لجاهدت عليه ولو لم أجد إلا ردائي، ولم أترك ابن أبي قحافة يعلو درجة واحدة من منبره ﷺ، ولكنه ﷺ رأى موضعي وموضعه، فقال : قم فصل بالناس وتركني، فرضينا به لدنيانا كما رضي به رسول الله ﷺ لديننا»(٢٩).

* يقول علي رضي الله عنه : « إن خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر وعمر» ويعقب عماد الدين خليل على هذه الرواية بقوله : «وقد روي عنه قوله هذا بأكثر من ثمانين وجها بالأسلوب العلمي التاريخي الموثوق به»(٣٠).

والذي أوقع المؤرخين في الاضطراب بخصوص بيعة علي رضي الله عنه ما حدث من خلاف بين أبي بكر رضي الله عنه وفاطمة رضي الله عنها بشأن ميراث أبيها فوجدت عليه، وكان لابد لعلي رضي الله عنه من ملاطفتها وتمريضها في هذه الفترة بالذات، فاضطر إلى أن يتغيب كثيرا عن مجالس أبي بكر رضي الله عنه حتى ظنه البعض لم يبايع، ولذلك بادر عندما توفيت فاطمة زوجته إلى إعادة البيعة ليعلم من لا علم له ببيعته الأولى(٣١).

٢٨- تاريخ الأمم والملوك ج ٣- ص ٢٠٧

٢٩- الصواعق المحرقة صر ٦٢.

٣٠- في التاريخ الاسلامي - ص ١٦.

٣١- تُراجع هذه البيعة في صحيحي البخاري ومسلم.

يقول الباقلاني في «التمهيد» : «وليس يجوز لمسلم اتقى الله أن يُضيف إلى علي بن أبي طالب والزبير رضي الله عنهما التأخر عن بيعته بأخبار آحاد واهية مجيئها من ناحية متهومة».

ومما يؤكد أيضا بيعة علي للصديق ويُبطل ما شغبت به الشيعة ومن تأثر بآرائها :

أ - توليته مع الزبير رضي الله عنهما قيادة فرقة الأنقاب لحماية المدينة من المرتدين.

ب - خروجه مع أبي بكر رضي الله عنهما إلى ذي القصّة (موضع قريب من المدينة) للبدء بقتال المرتدين.

جـ - عدم انقطاعه عن الصلاة خلف الصديق.

د - حضوره الدائم في كافة المناقشات.

٣- أسباب اختيار أبي بكر رضي الله عنه للخلافة :

اعتُمد في اختياره رضي الله عنه على أسباب عملية وعلى قرائن قولية :

١) الأسباب العملية :

أ - فهو أول من آمن من الرجال.

ب - وهو صاحب رسول الله ﷺ في الغار.

جـ - وقد أنابه عنه ﷺ في الصلاة خلال مرضه.

د - بالاضافة إلى تاريخه العريق في التفاني في خدمة الدعوة ومواقفه الجليلة في نصرة الاسلام.

هـ - مستواه الإيماني والأخلاقي الرفيع.

و - استعداده الشخصي لتحمل المسؤولية.

٢) الأسباب القولية :

هناك من القرائن ما يجعل بعض العلماء يقولون إن خلافة أبي بكر ثابتة بالنص ومن تلك القرائن :

أ - ما رواه البخاري ومسلم عن جبير بن مطعم قال : أتت امرأة النبي ﷺ فأمرها أن ترجع إليه، فقالت : «أرأيت إن جئت فلم أجدك» -كأنها تريد الموت فقال : «إن لم تجديني، فائتي أبا بكر».

ب ـ ما رواه أحمد وحسنه، وابن ماجه والحاكم وصححه عن حذيفة ابن اليمان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر»، وأخرجه الطبراني من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه، والحاكم من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

ج ـ ما أخرجه ابن حبان عن سفينة قال: «لما بَنَى رسول الله ﷺ المسجد وضع في البناء حجرا فقال لأبي بكر: ضع حجرك إلى جانب حجري: ثم قال لعمر: ضع حجرك إلى جانب حجر أبي بكر، ثم قال لعثمان: ضع حجرك إلى جانب حجر عمر، ثم قال: هؤلاء الخلفاء من بعدي»[٣٢] قال أبو زرعة: إسناده لا بأس به، وقد أخرجه الحاكم في «المستدرك» وصححه والبيهقي في «الدلائل» وغيره.

وهكذا يتبين لنا من خلال هذه الروايات الموثوقة أن خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه خلافة مشروعة أجمع عليها المسلمون، وتمت بالاختيار بعد مناقشات السقيفة، وهو رضي الله عنه لم يغتصب الخلافة من أحد، وإنما رضيه المسلمون لدينهم ودنياهم، فالتفوا حوله وأسلموا إليه مقاليد أمورهم بعد أن تبين لهم جميعا أنه أكملهم إيمانا وأكثرهم خوفا لله وأحبهم إلى رسول الله ﷺ وأعظمهم استعدادا لحمل أعباء الخلافة بما يتطلبه الأمر من صبر وإخلاص.

وما حدث في السقيفة من مناقشات لا يعبر عن صراع بين الصحابة على السلطة. وتهافت على الدنيا. وإنما يعبر عن اهتمامهم بأمر الخلافة وإعطائهم لهذا الواجب العظيم ما يستحق من الاهتمام، كما يعبر أيضا عما يمتاز به الصحابة في مناقشتهم من الصراحة والوضوح والاستعداد التام لقبول الحق عندما تظهر دلائله وتتضح أماراته.

ومن لم يألف مثل صراحتهم وحريتهم في التعبير عن وجهات نظرهم وعدم خوفهم من أحد إلا الله قد يستغرب ما يلاحظ في تدخلات بعضهم من حدة، وقد يفسرها بالغضب والحقد فيسيء إلى تاريخنا المجيد أكبر إساءة.

٣٢- انظر الصواعق المحرقة ص ٢٤. ولا يقال هنا لماذا اختلف الصحابة والرسول ﷺ قد رتب الخلفاء الراشدين في هذا الحديث؟ لأن الحديث إنما يوحي بذلك، ولأن الصحابة ليسوا كلهم على علم به، الا ترى أن الأنصار قالوا على لسان الحباب بن المنذر: «منا أمير ومنكم أمير» مع أن الرسول ﷺ قال كما بين أبو بكر رضي الله عنه «الخلافة في قريش».

وقد اقتنع الأنصار بعد ما سمعوا تدخل أبي بكر وتدخلات بعض المهاجرين والأنصار بأنه لا يوجد من بين المسلمين من هو أولى بالخلافة من أبي بكر رضي الله عنه فبايعوه عن رضاً وطواعية، وكيف لا يبايعونه وهم لا يبحثون إلا عن مصلحة الإسلام والمسلمين، فلما تبين لهم أن المصلحة في مبايعته انقادوا له وأطاعوه، وهذا دليل قاطع على أنه لا توجد هناك خلفيات تدفعهم إلى الاصرار على الخطإ والتماس السلطة بالحق والباطل.

ب ـ تولية عمر رضي الله عنه :

بويع أبو بكر، رضي الله عنه بالصورة التي تمت الاشارة إليها، ورغم أن خلافته كانت قصيرة الأمد فإنها مع ذلك كانت أيام بركة ونفع عميم، بحيث تم توحيد الجزيرة بعد القضاء على القلاقل، وبدأت مواجهة دولتي فارس والروم.

ترى ماذا سيكون موقفه بعد ما أحس بدنو أجله ؟ هل يترك الأمور تسير هكذا والدولة آنذاك في أمس الحاجة إلى الهدوء ومواجهة العدو المتربص ؟ أم يحسم الأمر بطريقة تمكن الدولة الفتية من أن تشق طريقها إلى النهوض ؟

لقد اختار رضي الله عنه الطريق الثاني، فعندما اشتدت عليه وطأة المرض، جمع إليه نخبة من أهل الرأي، وقال لهم فيما قال : «قد أطلق الله أيمانكم من بيعتي وحل عنكم عقدتي ورد عليكم أمركم، فأمروا عليكم من أحببتم، فإنكم إن أمرتم في حياة مني كان أجدر ألا تختلفوا بعدي»، فلم يستقر لهم أمر كما جاء في رواية الحسن البصري، ورجعوا إليه يقولون : «إن الرأي يا خليفة رسول الله رأيك» فاستمهلهم حتى : «ينظر لله ولدينه ولعباده» ثم استقر رأيه على استخلاف عمر.[33]

المراحل التي مرت بها تولية عمر :

لقد مرت تولية عمر رضي الله عنه بمراحل يمكن تلخيصها فيما يلي :

٣٣- عبقرية الصديق - العبقريات الاسلامية - مج : ٤ - ص : ٣٤٧.

١- مرحلة الاستشارة :

انطلاقا من قوله تعالى : ﴿وأمرهم شورى بينهم﴾[٣٤] دعا أبو بكر رضي الله عنه - قبل أن يرشح أحدا للخلافة - طائفة من أهل الحل والعقد يستخبرهم عن عمر رضي الله عنه ويطلب رأيهم فيه، فدعا عبد الرحمان بن عوف[٣٥] رضي الله عنه وقال له : «أخبرني عن عمر ؟ فقال : يا خليفة رسول الله، هو والله أفضل من رأيك فيه، ولكن فيه غلظة، فقال أبو بكر : ذلك لأنه يراني رقيقا، ولو أفضي الأمر إليه لترك كثيرا مما هو عليه، ويا أبا محمد قد رمقته[٣٦]. فرأيتني إذا غضبت على الرجل في الشيء، أراني الرضا عنه، وإذا لنت له أراني الشدة عليه، لا تذكر يا أبا محمد مما قلت لك شيئا، قال : نعم»[٣٧].

ومن جملة من استشارهم عثمان بن عفان رضي الله عنه، فقال له : «يا أبا عبد الله أخبرني عن عمر ؟ قال : أنت أخبرُ به، فقال أبو بكر : عليّ ذلك يا أبا عبد الله، قال : اللهم علمي به أن سريرته خير من علاّنيته، وأن ليس فينا مثله، قال أبو بكر : رحمك الله يا أبا عبد الله، لا تذكر مما ذكرت لك شيئا، قال أفعل، فقال أبو بكر : لو تركته ما عدوتك، وما أدري لعله (ربما لعلي) تاركه، فالخيرة له ألا يلي من أموركم شيئا، ولوددت أني كنت خلوا من أموركم وأني كنت فيمن مضى من سلفكم، يا أبا عبد الله : لا تذكرن مما قلت لك من أمر عمر ولا مما دعوتك له شيئا»[٣٨].

٣٤- الشورى ٣٨.

٣٥- أحد العشرة المبشرين بالجنة، وأحد الستة الذين توفي الرسول ﷺ وهو راض عنهم، ولد بعد عام الفيل ب : ١٠ سنين أسلم قديما : وهاجر الهجرتين وشهد بدرا والمشاهد كلها. مات سنة ٣١، وقيل : ٣٢هـ (انظر ترجمته في الاصابة).

٣٦- أدمت فيه النظر.

٣٧- تاريخ الأمم والملوك. ج ١ - ص : ١٣٧.

٣٨- المصدر نفسه - ج : ١ - ص : ١٣٧.

وشاور معهما سعيد بن زيد[٣٩] وأسيد بن حضير[٤٠] رضي الله عنهما وغيرهما من المهاجرين والأنصار، فأثنوا جميعا على عمر رضي الله عنه، ومما قال له أسيد : «اللهم أعلَمُهُ الخَيْرَ بعدك، يرضى للرضا، ويَسخط للسَّخط، الذي يُسر خير من الذي يعلن، ولن يلي هذا الأمر أحد أقوى عليه منه»[٤١].

ومن جملة من سألهم أبو بكر رضي الله عنه علي بن أبي طالب رضي الله عنه الذي قال له : «عمر عند ظنك به، إن وليته - مع أنه كان واليا معك - نحظى برأيه ونأخذ منه، فامض لما تريد، ودع مخاطبة الرجل، فإن يكن على ما ظننتَ إن شاء الله فله عمدت، وإن يكن ما لا تظن لم تُرد إلا الخير»[٤٢].

٢- مرحلة الترشيح والاستفتاء :

بعد الاستشارة تبين للصديق رضي الله عنه أن الناس متفقون على أفضلية عمر وأولويته بالإمامة العظمى، فاقترحه حينئذ ليكون خليفة من بعده، فقبل الناس ذلك ورحبوا به.

عنـدئذ استخلفه، ودعا عثمان بن عفان رضي الله عنه وأملى عليه كتاب الاستخلاف، ونصُّه : «بسم الله الرحمان الرحيم : هذا ما عهد به أبو بكر بن أبي قحافة في آخر عهده بالدنيا خارجا منها، وعند أول عهده بالآخرة داخلا فيها، حيث يُؤمن الكافر، ويوقن الفاجر، ويصدق الكاذب، إني استخلفت عليكم بعدي عمر بن الخطاب، فاسمعوا له وأطيعوا، وإني لم آلُ الله ورسوله ودينه ونفسي وإياكم خيرا، فإن عدل

٣٩- من المبشرين بالجنة، أسلم قبل دخول الرسول ﷺ دار الأرقم، وأسلم عمر في بيته، هاجر وشهد أحدا والمشاهد كلها، وشهد اليرموك وفتح دمشق، توفي بالعقيق سنة : ٥٠ وقيل : ٥١ وقيل ٥٢هـ. (الاصابة -ج ٢- ص : ٤٦).

٤٠- يكنى أبا يحيى، وهو أحد النقباء ليلة العقبة، أسلم على يد مصعب بن عمير، آخى الرسول ﷺ بينه وبين زيد بن حارثة، شهد بدرا وأحدا وغيرها من المشاهد، توفي سنة : 20 وقيل : ٢١هـ. (الاصابة - ج : ١ - ص : ٤٩).

٤١- الصواعق المحرقة - ص : ٨٩.

٤٢- عبقرية الصديق - العبقريات الاسلامية - مج . ١ - ص : ٣٤٧.

فذلك ظني فيه وعلمي به، وإن بدّل فلكل امرىء ما اكتسب، والخير أردت، ولا أعلم الغيب، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلبٍ ينقلبون، والسلام عليكم ورحمة الله»[٤٣].

ثم أمر بالكتاب فخُتم، وخرج به عثمان رضي الله عنه مختوما، وقد أشرف أبـو بكر رضي الله عنه على الناس فقال لهم: «أترضون بمن أستـخـلف عليكم ؟ فإني ما استخلفت عليكم ذا قرابـة، وإني قد استخلفت عليكم عمر، فاسمعوا له وأطيعوا، فقال الناس: سمعنا وأطعنا»[٤٤].

ثم دعا أبو بكر عمر خاليا فأوصاه بما أوصاه به، ثم خرج من عنده، فرفع أبو بكر يده وقالٍ: «اللهم إني لم أرد بذلك إلا إصلاحهم وخفت عليهم الفتنة، فعملتُ فيهم بما أنت أعلم به، واجتهدت لهم رأيي، فوليت عليهم خيرهم وأقـواهم وأحرصهم على ما هو أرشد لهم، وقد حضرني من أمـرك ما حضر فاخلفني فيهم، فهم عبـادك ونـواصيهم بيدك، أصلح واليهم واجعله من خلفائك الراشدين، وأصلح له رعيته».

3 ـ مرحلة المبايعة :

بويع عمر رضي الله عنه بالخلافة صبيحة وفاة أبي بكر الصديق رضي الله عنه بإجماع الصحابة، فصعد المنبر، وقال من جملة ما قال: «إنما مثل العرب مثَل جمل أنِف[٤٥] اتبع قائده، فلينظر قائده أين يقوده، أما أنا فورب الكعبة لأحملنهم على الطريق»[٤٦].

٤٣- الصواعق المحرقة ـ ص: ٨٩.

٤٤- الاسلام وأوضاعنا السياسية ـ ص: ١١١.

٤٥- الجمل الأنِفُ: الذلول السهل الانقياد، يقال: بعير مأنوف: أي يُساق بأنفه (لسانه العرب ـ ج: ١ ـ ص: ١٥١).

٤٦- إتمام الوفاء في سيرة الخلفاء ـ ص: ٦٦.

ومن خلال ما سبق يتبين لنا أن خلافة عمر رضي الله عنه مشروعة، تمت عن طريق الاجماع، وليس بصحيح إطلاقا ما يتوهمه بعض من لا علم له بتاريخ الإسلام، من أن خلافته فرضت على المسلمين دون أن يأخذ أبو بكر بآرائهم ودون أن يترك لهم الفرصة ليختاروا بمحض إرادتهم من يريدون توليته، وذلك للأسباب التالية (٤٧):

١- أن أبا بكر رضي الله عنه رشّحه للخلافة ولم يفرضه حاكما على المسلمين، وما ذلك إلا لكي يقي الأمة أسباب الفتنة والخلاف.

٢- أنه لم يفعل ذلك إلا بعد أن أسند إليه الصحابة مهمة الترشيح وفوضوا له في اختيار من يراه صالحا للخلافة.

٣- أنه لم يرشحه إلا بعد استشارة عدد مهم من كبار الصحابة من المهاجرين والأنصار، فلاحظ من خلال ثنائهم عليه أن رأيهم فيه يشبه رأيه فيه.

٤- أن الصحابة اقتنعوا بأن عمر أقدرُهم على الخلافة لتقواه من جهة، ولقدرته ومؤهلاته من جهة أخرى.

٥- أن عمر رضي الله عنه لم تكن له رغبة في الخلافة، وإنما قبلها بعد أن ألحّ عليه أبو بكر رضي الله عنه وأفهمه أن مصلحة الاسلام تقتضي خلافته، ويدل على ذلك أنه قال لأبي بكر عندما عرضها عليه: «لا حاجة لي فيها، فقال له: ولكن لها بك حاجة يا ابن الخطاب» (٤٨).

٦- أن أبا بكر سأل الصحابة عندما أطل عليهم بعدما خرج عثمان بوثيقة الاستخلاف: «يا أيها الناس: إني قد عهدت عهدا أفترضون به؟ فقال الناس: رضينا يا خليفة رسول الله ﷺ» (٤٩).

٧- أن الناس بايعوا عمر بالإجماع بعد وفاة الصديق رضي الله عنه ولم نعلم أحدا تخلف عن مبايعته.

٨- أن علاقته بمختلف الصحابة علاقة طيبة بمن فيهم الإمام علي رضي الله عنه الذي بلغ إعجابه به ومحبته له أن زوجه ابنته من

٤٧- انظر على سبيل المثال: «السقيفة» للامام الشيخ محمد رضا المظفر - ص ١٢٢، وكذلك: «الخلافة ونشأة الأحزاب الاسلامية» لمحمد عمار.

٤٨- عبقرية عمر - العبقريات الاسلامية - مج: ١ - ص: ٥٤٩.

٤٩- أخرجه ابن عساكر عن يسار بن حمزة.

فاطمة الزهراء أم كلثوم رضي الله عنهما. وعندما توفي عمر رضي الله عنه بكاه علي رضي الله عنه بكاء مريرا، فلامه الناس على ذلك فقال: «أبكي على موت عمر، إن موت عمر ثُلْمة في الاسلام لا تُرتق إلى يوم القيامة»[٥٠].

جـ ـ تولية عثمان رضي الله عنه:

لم يكن اغتيال عمر بن الخطاب رضي الله عنه[٥١] ـ بعد حياة حافلة بأريج العدالة وسموق السيرة الحسنة ـ حادثا فرديا بسيطا كما قد يتوهم ذو النظرة العجلى، بل كانت له دلالة عميقة يشير إلى بعضها الأستاذ محمد شديد بقوله: «كان حادث اغتيال عمر في المسجد أكبر من غلام المغيرة[٥٢]، وكانت جذور الفتنة أعمق مما ظن المسلمون، وطاقتها أكثر من طاقة الهرمزان[٥٣] وأعوانه بالمدينة»[٥٤]، كما كان إرهاصا بالفتنة التي أوقد نارها بعض الموتورين الحاقدين ممن اندسوا في الصف الاسلامي وتظاهروا باعتناق الاسلام.

وقد وعى المسلمون خطورة ذلك الاغتيال بكل أبعاده، فسارعوا لخليفتهم المطعون يستحثونه على أن يستخلف كما ورد في حديث طويل رواه البخاري في صحيحه: «أن الصحابة قالوا لعمر بعدما طُعن وحمل إلى داره أوْص يا أمير المؤمنين، استخلف، فقال: ما أجد أحق بهذا الأمر من هؤلاء النفر (الرهط) الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راض: فسمى عليا وعثمان والزبير[٥٥] وطلحة[٥٦] وسعد[٥٧] وعبد

٥٠- الثلمة: الخلل، ورتق الثلمة: إصلاحُها.
٥١- عبقرية عمر ـ العبقريات الاسلامية ـ مج: ١ - ص ٢٥٢.
٥٢- أبو لؤلؤة المجوسي، عبد مكاتب للمغيرة بن شعبة رضي الله عنه.
٥٣- قائد فارسي كان يقيم بالمدينة، وقد شارك في قتل عمر.
٥٤- منهج التربية في القرآن ص ٥٥.
٥٥- أحد المبشرين بالجنة وأحد اصحاب الشورى، هاجر الهجرتين، شهد بدرا والمشاهد كلها، كما شارك في اليرموك، قتل يوم الجمل سنة٣٦هـ (الاصابة ج: ١ - ص ٥٤٦).
٥٦- أحد العشرة المبشرين بالجنة، وأحد الثمانية الذين سبقوا إلى الاسلام، وأحد رجال الشورى. أسلم على يد أبي بكر، وشهد أحدا فكانت له فيها مواقف خالدة، رُمي بسهم في «الجمل» فتوفي سنة ٣٦هـ (الاصابة ج ٢ - ص ٢٣٠).
٥٧- أحد العشرة وآخرهم موتا، وأحد رجال الشورى، وقد فتح العراق، وبنى الكوفة، ووليها لعمر سنة ٢١هـ. مات سنة ٥١هـ وقيل ٥٤ هـ وقيل غيرها (الاصابة ج ٢ - ص ٣٤).

الرحمان» ويعلق الأستاذ سعيد حوى على هذه الرواية بقوله : «أول ما يطالعنا فيها أن الناس طلبوا من عمر أن يستخلف، فاختار لهم ستة أشخاص ليختاروا من بينهم رجلا واحدا يلي أمر الأمة، وتعبير الكتب التاريخية توهم أن الناس طلبوا من عمر أن يختار لهم الخليفة بعده، ولكنهم في الحقيقة لم يطلبوا منه إلا أن يرشح لهم من يخلفه كما فعل أبو بكر رضي الله عنه، لأن الخليفة القائم لا يملك أن يختار خلفه شرعا كما قررنا من قبل وإنما يملك أن يرشح للخلافة من يراه أقدر عليها، ولأن الخلافة لا تنعقد إلا ببيعة أهل الرأي في الأمة، فكل ما يحدث من اختيار قبل البيعة ليس إلا ترشيحا للخلافة قد يأخذ ذوو الرأي به وقد يهملونه»(٥٨).

كما وعى عمر بن الخطاب رضي الله عنه نفسه خطورة الأمر فسارع إلى وضع إجراآت أمنية تتمثل فيما يلي :

١- حدد زمن الانتخاب في 3 أيام.

٢- «أوصى أن يصلي بالناس صهيب بن سنان الرومي(٥٩) ثلاثة أيام حتى تنقضي الشورى»(٦٠)

٣- «وأن يجتمع أهل الشورى، ويوكل بهم أناس حتى ينبرم الأمر»(٦١).

٤- «ووكل بهم خمسين رجلا من المسلمين، وجعل عليهم مستحثا أبا طلحة(٦٢) الأنصاري»(٦٣) ومهمة هؤلاء الرجال الخمسين تتمثل في :

- المراقبة الدائمة حتى لا يطرأ تشويش خارجي يعوق الانتخاب.
- السهر على إجراء الانتخابات في المدة الزمنية المحددة.
- توفير الظروف الأمنية السليمة.

٥٨- الاسلام ج ٢- ص ١٤٩.

٥٩- أسلم والرسول ﷺ في دار الأرقم وكان من المستضعفين هاجر مع علي في آخر من هاجر وشهد بدرا والمشاهد كلها توفي سنة ٣٨هـ وهو ابن السبعين (الاصابة ج ٢ - ص ١٩٦).

٦٠- ٦١- ٦٣- البداية والنهاية - ج ٧ - ص : ١٤٥.

٦٢- زيد بن سهل الأنصاري، شهد العقبة وبدرا والمشاهد كلها، توفي سنة : ٣١، وقيل ٣٤هـ وهو ابن سبعين سنة («الاستيعاب» على هامش «الاصابة» ج ٤ - ص ١١٥).

المراحل التي مرت بها تولية عثمان رضي الله عنه :

بعد اجتماع المرشحين في بيت المسور بن مخرمة تمكن عبد الرحمان بن عوف[٦٤] رضي الله عنه من أن يضع خطة عادلة للانتخاب مبنية على الشورى وتحري الحق والصواب، وقد مرت بأربع مراحل :

١- دعاهم عبد الرحمان رضي الله عنه إلى ما يلي «أيكم يخرج منها نفسه ويتقلدها على أنه يوليها أفضلكم، فلم يجبه أحد، فقال : فأنا انخلع منها، فقال عثمان : أنا أول من رضي، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : «أمين في الأرض، أمين في السماء» فقال القوم : قد رضينا -وعلي ساكت- فقال : ما تقول يا أبا الحسن ؟ قال : أعطني موثقا لتؤثرن الحق ولا تتبع الهوى، ولا تخص دارَ حمٍ ، ولا تألوا الأمة، فقال : أعطوني مواثقكم على أن تكونوا معي على من بدّل وغير وأن ترضوا من اخترت لكم، علي ميثاق أن لا أخص دار حمٍ لرحمه ولا آلو المسلمين فأخذ منهم ميثاقا وأعطاهم مثله»[٦٥]

٢- سعى عبد الرحمان إلى حصر المنتخبين في أقل عدد ممكن كما توضح ذلك الرواية التالية :

«. . . ثم قال لعلي : إنك تقول إني أحق من حضر بالأمر لقرابتك وسابقتك وحسن أثرك في الدين ولم تبعد، ولكن أرأيت لو صرف هذا الأمر عنك، فلم تحضر، من كنت ترى من هؤلاء الرهط أحق بالأمر ؟ قال : عثمان، وخلا بعثمان فقال : تقول شيخ من بني عبد مناف وصهر رسول الله ﷺ، وابن عمه لي سابقة وفضل، لم تبعد، فلن يصرف هذا الأمر عني، ولكن لو لم تحضر فأي هؤلاء الرهط تراه أحق به ؟ قال : علي، ثم خلا بالزبير فكلمه بمثل ما كلم به عليا وعثمان فقال علي، ثم خلا بسعد فكلمه، فقال : عثمان»[٦٦].

٦٤- ولد بمكة بعد الهجرة بسنتين، وكان من أهل الفضل والدين، وكان مع عبد الله بن الزبير عندما حوصرت مكة، وأصابه المنجنيق فمات سنة : ٦٤هـ. (الاصابة - ج ٣ - ص : ٤٢٠).

٦٥- التاريخ الاسلامية - ج ٣ - ص ٢٠٩.

٦٦ المرجع نفسه - ج ٣ ص ٢١٠ .

ويعلق محمود شاكر على هذا بقوله : «وهكذا حصر الأمر بين علي وعثمان، ولم يرد عبد الرحمان بن عوف أن يختار هو فيرجح الكفة، وينظر إليه أنه اختار أو عين، فقد كانوا رضي الله عنهم يريدون أن يبتعدوا عن مثل هذه المواقف والمواطن»[٦٧]

٣- قام عبد الرحمان يستشير الناس في عثمان وعلي رضي الله عنهما، كما يحدثنا ابن كثير : «ثم نهض عبد الرحمان بن عوف يستشير الناس فيهما ويجمع رأي المسلمين برأي رؤوس الناس وأقيادهم جميعا وأشتاتا مثنى وفرادى ومجتمعين سرا وجهرا حتى خلص إلى النساء المخدرات في حجابهن وحتى سأل الولدان في المكاتب، وحتى سأل من يرد من الركبان والأعراب إلى المدينة فسعى في ذلك ثلاثة أيام بلياليها لا يغتمض بكثير نوم إلا صلاة ودعاء واستخارة وسؤالا من ذوى الرأي عنهم، فلم يجد أحدا يعدل بعثمان بن عفان رضي الله عنه»[٦٨].

وفي هذا يقول ابن عساكر في روايته : «إني رأيت الناس يأبون إلا عثمان».

٤- في صبيحة اليوم الرابع جمع الناس بالمسجد وخطب فيهم، ثم دعا عليا وعثمان وفي هذا يقول ابن عساكر : «وأخذ بيد علي وقال : هل أنت مبايعي على كتاب الله وسنة نبيه ﷺ وفعل أبي بكر وعمر، قال : اللهم ، ولكن على جهدي من ذلك وطاقتي، قال فأرسل يده. وقال ثم إلي يا عثمان فأخذ بيده فقال : هل أنت مبايعي على كتاب الله وسنة نبيه ﷺ وفعل أبي بكر وعمر، قال : اللهم نعم، قال : فرفع رأسه إلى سقف المسجد ويده في يد عثمان فقال : اللهم اسمع واشهد، اللهم اسمع واشهد، اللهم اسمع واشهد، اللهم إني قد خلعت ما في رقبتي من ذلك في رقبة عثمان. قال : وازدحم الناس يبايعون عثمان حتى غشوه تحت المنبر»[٦٩].

٦٧- المرجع نفسه - ٣ - ص ٢١٠

٦٨- البداية والنهاية - ٣ - ص ١٤٧.

٦٩- المصدر نفسه - ج ٧ ص ١٤٦ - ١٤٧ .

وأما طلحة فعن موقفه يقول الطبري : «وفي اليوم الذي بويع فيه عثمان قدم طلحة بن عبيد الله أحد رجال الشورى، وكان غائبا، فقيل له : بايع عثمان، قال : أكُلّ الناس راض عنه ؟ قال : نعم، قال أكل الناس بايعوه ؟ قال : نعم، قال : قد رضيتُ، لا أرغب عما قد أجمعوا عليه، وبايعه»[٧٠]

ونختم هذه البيعة بقول الإمام أحمد : «لم يتفق الناس على بيعة كما اتفقوا على بيعة عثمان، ولاّه المسلمون بعد تشاورهم ثلاثة أيام وهم مؤتلفون مُتفقون متحابون متوادون معتصمون بحبل الله جميعا»[٧١].

ومما تقدم يمكن أن يستخلص ما يلي :

أ ـ أن انتخاب عثمان رضي الله عنه كان شوريا، روعيت فيه إرادة الجماهير الاسلامية ورغبتها.

ب ـ أن انتخابه كان مكشوفا أمام الجميع ولم يكن مؤامرة سرية كما يظن بعض المغرضين.

جـ ـ أن المبايعة كانت عامة، ولم تكن هناك أدنى معارضة من أحد.

د ـ تولية علي رضي الله عنه :

قتل عثمان رضي الله عنه في جو من الفوضى والاضطراب كما سيأتي تفصيله، ترى كيف تطورت الأحداث بالمدينة ؟ وما مصير الخلافة الاسلامية ؟

يجمل الطبري وقائع تلك الفترة فيما يلي: «بقيت المدينة بعد مقتل عثمان خمسة أيام، وأميرها الغافقي بن حرب[٧٢]، يلتمسون من يجيبهم إلى القيام بالأمر فلا يجدونه، يأتي المصريون عليا فيختبىء منهم ويلوذ بحيطان المدينة[٧٣] فإذا لقوه باعدهم وتبرأ من مقالتهم مرة بعد مرة، فبعثوا إلى سعد بن أبي وقاص، وقالوا: إنك من أهل الشورى فرأينا فيك،

٧٠ـ تاريخ الأمم والملوك ـ ج ٥ ـ ص ٧٨٧.

٧١ـ منهاج السنة ـ ج ٣ ـ ص ٢٣٣ ـ ٢٣٤

٧٢ـ الغافقي بن حرب العكي، من قبائل اليمن التي استوطنت مصر عند الفتح، استماله ابن سبأ إلى دعوته لما رأى فيه من حب الرئاسة، وكان الرئيس العام للمصريين عند احتلال المدينة كما سيأتي، وهو الذي كان يصلي بالناس بعد منع الثوار لعثمان من الخروج.

٧٣ـ بساتينها.

مجتمع، فاقدم نبايعك، فبعث إليهم : إني وابن عمر خرجنا منها، فلا حاجة لي فيها على حال، ثم إنهم أتوا ابن عمر فقالوا : أنت ابن عمر فقم بهذا الأمر، فقال : إن لهذا الأمر انتقاما، والله لا أتعرض له، فالتمسوا غيري، فبقوا حيارى لا يدرون ما يصنعون والأمر أمرهم، ولما كان يوم الخميس على رأس خمسة أيام من مقتل عثمان رضي الله عنه، جمعوا أهل المدينة فوجدوا سعدا والزبير خارجين، ووجدوا طلحة في حائط له، ووجدوا بني أمية قد هربوا. . . فلما اجتمع لهم أهل المدينة، قال لهم أهل مصر : أنتم أهل الشورى، وأنتم تعقدون الامامة وأمركم عابر على الأمة، فانظروا رجلا تنصبونه ونحن لكم تبع، فقال الجمهور : علي بن أبي طالب نحن به راضون. . .»

وفي رواية أخرى : «فقالوا لهم : يا أهل المدينة قد أجلناكم يومين، فوالله لئن لم تفرغوا لنقتلن غدا طلحة والزبير وأناسا كثيرا.
فغشي الناس عليا، فقالوا : نبايعك فقد ترى ما نزل بالاسلام، وما ابتلينا به من ذوي القربى، فقال علي : دعوني التمسوا غيري، فإنا مستقبلون أمرا له وجوه، وله ألوان لا تقوم له القلوب ولا تثبت عليه العقول.
فقالوا : ننشدك الله، ألا ترى ما نرى؟ ألا ترى الاسلام؟ ألا ترى الفتنة؟ ألا تخاف الله؟ فقال؟ قد أجبتكم لما أرى. واعلموا إن أجبتكم ركبت بكم ما أعلم، وإن تركتموني فإنما أنا كأحدكم إلا اني أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه أمركم. ثم افترقوا على ذلك واتعدوا الغد.
فلما أصبحوا من يوم الجمعة حضر الناس المسجد، وجاء علي حتى صعد المنبر فقال : يا أيها الناس عن ملأ وأذن، إن هذا أمركم ليس لأحد فيه حق إلا إن امرتم، وقد افترقنا بالأمس على أمر، فإن شئت قعدت لكم، وإلا فلا أجد على أحد، فقالوا : نحن على ما فارقناك عليه بالأمس»[٧٤].

وهكذا نستنتج من هذا النص - الذي تعمدنا أن ننقله رغم طوله - ما يلي :

٧٤- تاريخ الأمم والملوك - ج ٣ - ص ٤٥٦.

أ ـ سيطرة الثوار التامة على المدينة.
ب ـ محاولتهم تعيين خليفة يرضونه حتى يكون الأمر لهم.
جـ ـ تركيزهم على أهل الشورى علما منهم بأن المسلمين يثورون ضدهم إن لم يستجب لهم أهل الحل والعقد.
د ـ تهديدهم لأهل المدينة لإرغام الناس على اختيار خليفة.
هـ ـ توجه الناس إلى علي رضي الله عنه وإلحاحهم عليه في قبول البيعة.
و ـ قبول علي رضي الله عنه البيعة ـ بعد إصرار على الرفض ـ خوفا من الفتنة وتقديرا للوضع القائم، قال ابن كثير: «عدل الناس إلى علي فبايعوه قبل أن يدفن عثمان وقيل بعد دفنه، وقد امتنع علي من إجابتهم إلى قبول الامارة حتى تكرر قولهم له، وفر منهم إلى حائط بني عمر بن مبدول وأغلق بابه، فجاء الناس فطرحوا الباب وولجوا عليه»(٧٥).
ز ـ رفض طلحة والزبير رضي الله عنهما الرضوخ للثوار، إلا أنه ثبت أنهما بايعا عليا رضي الله عنه فيما أورده ابن كثير حيث قال: «... وجاءوا معهم بطلحة والزبير فقالوا له: إن هذا الأمر لا يمكن بقاؤه بلا أمير، ولم يزالوا به حتى أجاب»(٧٦)
حـ ـ صحيح أن بعض الصحابة تخلفوا عن مبايعته إلا أن ذلك لا يطعن في بيعته(٧٧). بل ان هذه البيعة المباركة قد أعادت المشروعية. يقول ابن العربي: «ولولا الاسراع بعقد البيعة لعلي، لجرى على من بها من الأوباش ما لا يرقع خرقه، ولكن عزم عليه المهاجرون والأنصار فرأى ذلك فرضا عليه فانقاد إليه»(٧٨).

من خلال الوقائع السابقة الذكر، يتضح بما لا يدع مجالا للغموض أو الالتباس أن بيعة علي رضي الله عنه كانت مشروعة كبيعة إخوانه الثلاثة من قبل، وأنها مستمدة من رضا أهل الحل والعقد، الذين يمثلون الأمة الاسلامية ويتكلمون باسمها.

٧٥ـ البداية والنهاية ٧ – ص ٢٢٥.
٧٦ـ المصدر نفسه ج.٧ – ص ٢٢٥
٧٧ـ راجع التمهيد للباقلاني ـ ص ٢٣١. وكذلك «الفصل في الملل والأهواء والنحل» لابن حزم ـ ج ٤ – ص ١٦٧ – ١٦٩.
٧٨ـ العواصم ـ ص ١٤٢.

الفصل الثاني
لمحات من مظاهر عدالة الخلفاء الراشدين ورعايتهم للصالح العام

بعد أن تبين لنا أن الخلفاء الراشدين بويعوا بيعة شرعية صحيحة، نتجاوز هذه النقطة لنطرح بعض التساؤلات حول هدفهم من السلطة، وكيف كانوا يمارسونها ؟ هل كانوا يستغلونها لخدمة الصالح العام، أم كانت عندهم مجرد وسيلة لقضاء أغراضهم ومآربهم ؟ وفي هذا الصدد يقول الدكتور عماد الدين خليل : «بمجرد استقراء الوقائع التاريخية الغنية والكثيفة، يمكن أن نجد الجواب واضحا لا يحتمل مناقشة أو لجاجا، وسواء كانت القضية على مستوى الاستغلال المادي أو الابتزاز الأدبي، فإننا في عصر الراشدين نحظى بتجربة في التجرد على هذين المستويين، يصعب علينا أن نجد لها مثيلا في تاريخ البشرية كله»[79].

ومجال هذا البحث لا يتسع لتتبع عدالة الخلفاء الراشدين ورعايتهم للصالح العام، ولذلك سنختصر ونكتفي بإيراد بعض المظاهر التي تدل على ما نريد وتفي بالغرض المقصود.

من مظاهر عدالة أبي بكر الصديق رضي الله عنه :

لقد أحب أبو بكر رضي الله عنه رعيته، وتفانى في خدمتها، وسهر على قضاء مصالحها، ويتجلى ذلك في المظاهر الآتية :

١) روى الامام أحمد عن أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال : «أرحم أمتي بأمتي أبو بكر، وأشدهم في دين الله عمر، وأصدقهم حياء عثمان . . .»[80]

٢) كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يذهب إلى امرأة عجوز ليقضي لها ما تحتاج إليه من أعمال، فكان إذا جاءها فسألها عن حاجتها

٧٩- في التاريخ الاسلامي : فصول في المنهج والتحليل - ص ٣٠.

٨٠- مسند الامام أحمد - ج ٣ - ص ٢٨١.

قالت له : إن رجلا جاءها قبله فقضى حاجتها، وظل عمر كذلك عدة أيام، ثم جاءها يوما مبكرا، وما إن وقف على بابها حتى رأى رجلا ملثم الوجه يخرج مسرعا من عندها إلى الطريق، فأسرع عمر خلفه حتى أدركه، ثم رفع عن وجهه النقاب، فإذا به بأبي بكر الصديق، فقال له عمر : «أنت هو، لعمري لقد علمت ألا يسبقني إلى هذا إلا أنت !»[٨١].

٣) لما أخذ عمر بن الخطاب ولده عاصما من أمه المطلقة، تخاصما إلى أبي بكر، فقضى بالوليد لأمه، وقال لعمر : «ريحها وشمها ولطفها خير له منك»، وهو حكم في غاية العدل والرحمة.

٤) من مظاهر انتشار العدل في عهده رضي الله عنه أنه ولى عمر بن الخطاب القضاء فمكث سنتين لا يأتيه رجلان متخاصمان، وهذا يدل على أن الحالة الاجتماعية كانت تتسم في عهده بالاستقرار والأمن، وأن المسلمين كانوا ينعمون في ذلك العهد بروح العدل والمساواة وروح الأخوة والإيثار.

٥) «كان أبو بكر يتقصى أخبار الولاة ويسأل الرعية هل من أحد يشتكي ظُلامَة[٨٢]، فإن وجد ظُلامة أنصف المظلوم على سنته التي آستنها، وهي أن الكبير صغير حتى يأخذ الحق منه»[٨٣].

٦) أخرج الطبراني عن الحسن بن علي بن أبي طالب قال : «لما احتضر أبو بكر قال : يا عائشة انظري اللقحة[٨٤] التي كنا نشرب من لبنها، والجفنة[٨٥] التي كنا نصطبغ فيها[٨٦]، والقطيفة التي كنا نلبسها، فإننا كنا ننتفع بذلك حين نلي أمر المسلمين، فإذا مت فارْدُديه إلى عمر»، **فلما مات أبو بكر رضي الله عنه أرسلت به إلى عمر فقال: «رحمك الله يا أبا بكر، لقد أتعبت من جاء بعدك».**

٨١- أبو بكر الصديق لصابر عبده إبراهيم، سلسلة أعلام المسلمين - عدد ١٠ - ص ٥٦.

٨٢- الظُلامة : المظلمة، وهي ما احتملته من الظلم.

٨٣- عبقرية الصديق - العبقريات الاسلامية - مج ١ - ص ٣٤٠.

٨٤- اللقحة : الناقة الحلوب.

٨٥- الجفنة : ج جفان وجفنات : القصعة الكبيرة.

٨٦- نصطبغ فيها : يقال اصطبغ بالصبغ أي الإدام، واصطبغ بالخل أي اتخذه إداما.

من مظاهر عدالة عمر رضي الله عنه :

أمـا عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقد سارت بعدالته واستقامته وشدته في الحق الركبان، ولم يعد حبّه لرعيته، وإشفاقه عليها، وتضحيته من أجلهـا، محل شك أو نزاع، ويكفينا في هذا المقام من بحر عدله الزاخر القطرات الآتية :

١) «كان عمر يصوم كثيرا، فكان زمن الرمادة إذا أمسى أتي بخبز قد ثرد بالـزيت، إلى أن نحـروا يوما من الأيام جَزورا، فأطعمها الناس وغرفوا له طيبها فأتي به، فإذا قديد من سنام ومن كبد، فقال : بخ، بخ ! بئس الوالي أنا إن أكلت طيبها وأطعمت الناس كراديسها، ارفع هذه الجفنـة، هات غير هذا الطعام، فأُتي بخبز وزيت فجعل يكسر بيده ويثرد ذلك الخبز، ثم أمر بحمل تلك الجفنة إلى أهل بيت من بيوت المسلمين.

وفي نفس العام نظر إلى بطيخة في يد بعض ولده، فقال : بخ، بخ، يا ابن أمير المؤمنين، تأكل الفاكهة وأمة محمد هزْلى ؟، فخرج الصبي هاربا وبكى، فقالوا : اشتراها بكف من نواة»[87].

٢) كان يشعر شعورا عميقا بمسؤولياته لدرجة أنه كان الناس ينامون وهو يحرسهم، ويدور بأزقة المدينة علّه يعثر على جائع فيطعمه، أو مظلوم فينصره (انظر قصته مع المرأة التي أخذها الطّلق[88]، وقصة حراسته مع عبد الرحمان بن عوف)[89]

٣) وجده رسول ملك الروم نائما على الرمال، فقال قولته المشهورة :
«عدلت، فأمنت، فنمت»[90]

٨٧- الفاروق القائد لمحمود شيت خطاب -ص١٣٧.

٨٨- الطلق : وجع الولادة، وجمعه أطلاق.

٨٩- نفس المرجع - ص ١٣٥ - ١٣٩.

٩٠- عبقرية عمر - ص ٤٣٤

٤) قال عمر : «أيما عامل لي ظلم أحدا، فبلغني مظلمته، فلم أغيرها، فأنا ظلمته»[٩١].

٥) كان يوصي ولاته بالناس ويقول لكل واحد منهم : «افتح لهم بابك، وباشر أمورهم بنفسك، فإنما أنت رجل منهم، غير أن الله جعلك أثقلهم حِملا»[٩٢].

٦) قال عمر : «لئن عشت إن شاء الله لأسيرن في الرعية حولا، وإني أعلم أن للناس حوائج تقطع عني آمالهم فلا يصلون إلي وأما عمالهم فلا يرفعونها إلي، فأسير إلى الشام فأقيم بها شهرين، ثم إلى مصر فأقيم بها شهرين، ثم أسير إلى البحرين فأقيم بها شهرين، ثم أسير إلى الكوفة فأقيم بها شهرين، ثم أسير إلى البصرة فأقيم بها شهرين»[٩٣]

٧) وذكر محمود شاكر في «التاريخ الاسلامي» ما يلي :

أ - كان يراقب الولاة ويتدخل في طعامهم وشرابهم ولباسهم ومسكنهم.

ب - كان يطلب من عماله أن يُوافوه في كل موسم حج.

جـ - كان يسأل الناس عن ولاتهم وتمسكهم بالشرع وحكمهم بالعدل.

د - كتب إلى ولاته أن يمنعوا المسلمين من ظلم أهل الذمة، وأوصى بأهل الذمة أن يُوَفى إليهم عهدهم.

من مظاهر عدالة عثمان رضي الله عنه :

أما عثمان بن عفان رضي الله عنه فكل ما يزعمه المُغرضون من فساد تخلل خلافته، لا يجدون عليه دليلا، بل الذي صحّ أنه هو الآخر كان عادلا مع رعيته كما تدل على ذلك الرويات والأقوال التالية، التي تتميز بالندرة نظرا لأن المؤرخين استهواهم ما في المرحلة الثانية من خلافة عثمان من أحداث فسلطوا عليها الأضواء، وأهملوا المرحلة الأولى التي تتميز بالاستقرار وازدهار الفتوحات :

٩١- الفاروق القائد - ص ١١٤.

٩٢- عبقرية عمر - ص ٤٨٦.

٩٣- الفاروق القائد - ص ١٤٢.

١) قال الحسن البصري : «كان عثمان ينام في المسجد، ويقوم وآثار الحصى على جنبه، فيقول الناس : هذا عثمان، هذا أمير المومنين»، وقال : «كان عثمان يُطعم الناس طعام الامارة ويأكل الخل والزيت»[٩٤]

٢) قال الحسن أيضا : «شهدت منادي عثمان ينادي يأيها الناس : اغدوا على أعطياتكم فيغدون ويأخذونها وافية يا أيها الناس اغدوا على أرزاقكم فيغدون فيأخذونها وافية. حتى والله سمعته أذناي يقول : اغدوا على كسوتكم فيأخذون الحُلل، واغدوا على السمن والعسل. قال الحسن : أرزاق دارّة، وخير كثير، وذات بين حسن»[٩٥].

٣) يحدثنا عبد الله بن شداد فيقول : «رأيت عثمان يخطب يوم الجمعة، وعليه ثوب قيمته أربعة دراهم أو خمسة دراهم، وإنه يومئذ لأمير المؤمنين»[٩٦]

٤) سمح رضي الله عنه للصحابة الكرام بالخروج حيث شاءوا لأهداف سامية تتجلى فيها عدالته وبُعد نظره، حتى يُقدموا النصح للمسلمين في الأمصار، ويكونوا بجانب الولاة ليُشيروا عليهم بما فيه مصلحة الاسلام والمسلمين.

٥) منع رضي الله عنه قتال المشاغبين رغم ما بلغه الأمر من خطورة تاركا لهم حرية التعبير والنقد[٩٧].

٦) لما أذن لمعاوية رضي الله عنه بركوب البحر لقتال الروم اشترط عليه عدم إكراه الناس على ذلك.

٧) يغضب على خادم له يوما فيعرك أذنه حتى يُوجعه، ثم سرعان ما يقض ضمير العابد مضجعه، فيدعو الخادم ويأمره أن يقتص منه فيعرك أذنه، ويأبى الخادم ويُولي مدبرا، لكن عثمان يأمره في حزم، فيُطيع : «اشدُد يا غلام فإن قصاص الدنيا أرحم من قصاص الآخرة»[٩٨].

٩٤- التاريخ الاسلامي : فصول في المنهج والتحليل - ص ٣٠.
٩٥- مع الرعيل الأول لمحب الدين الخطيب - ص ١٧٦.
٩٦- «وداعا عثمان» لخالد محمد خالد - دار المعارف بدون طبعة ولا رقم - ص ٤٧.
٩٧- سيأتي توضيح هذه الجوانب عند مناقشة سياسة عثمان رضي الله عنه.
٩٨- نفس المرجع ونفس الصفحة.

من مظاهر عدالة علي رضي الله عنه :

لم يُمهَل الإمام علي رضي الله عنه لتتجلى لنا سياسته بوضوح، ولكن الظاهر أنه كان ينوي أن يسير سيرة عمر كما يدل على ذلك ما يلي :

١) عن مجمع التميمي أن عليا قسم ما في بيت المال بين المسلمين، ثم أمر به فكُنس، ثم صلى فيه رجاء أن يشهد له المكان يوم القيامة»[٩٩].

٢) كان رضي الله عنه يرتدي جلبابا اشتراه من السوق بثلاثة دراهم، ويركب حمارا وقد تدلت على جانبيه ساقاه، وكأنه واحد من فقراء البادية، ويعزم عليه أصحابه أن يتخذ وسيلة لنقله جوادا يليق بأمير المؤمنين، فيجيبهم قائلا : «دعوني أهن هذه الدنيا»[١٠٠].

٣) ويمشي في أسواق الكوفة وهو خليفة المسلمين فيُرشد الضال، ويعين الضعيف، ويلتقي بالشيخ المسن الكهل فيحمل عنه حاجته ويتحرج أصحابه مما يرون، فيتلو عليهم قوله تعالى : «تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين»[١٠١].

٤) ويشتري حاجات أهله وبيته ويحملها بيديه، فإذا اقترب منه بعض مرافقيه ليحملوها عنه أبى، وقال وهو يبتسم لهم : «أبو العيال أحق بحمله»[١٠٢].

٥) دُعي لينزل قصر الإمارة بالكوفة، فلا يكاد يبصره حتى يُولي عنه مدبرا وهو يقول : «قصر الخَبَال هذا، لا أسكُنه أبدا» ويلح عليه أهل الكوفة أن ينزل به، فيُصر على رفضه ويقول : «لا حاجة لي فيه : إن عمر بن الخطاب كان يكرهه»[١٠٣].

99 - علي المفترى عليه لعبد الحليم عويس ومصطفى عاشور - سلسلة من أعلام الاسلام - دار الاعتصام - ص ٨٦.

١٠٠- في رحاب علي لخالد محمد خالد - دار المعارف (بدون طبعة ولا رقم) - ص ١٣٧.

١٠١- نفس المرجع ونفس الصفحة.

١٠٢- نفس المرجع ونفس الصفحة.

١٠٣- نفس المرجع ونفس الصفحة.

٦) كان أخوه عقيل كثير الأولاد غاية ما يكون فقرا وعوزا، وقد أتى يوما إلى أخيه علي -خليفة المسلمين- يطلب إليه أن يعيره من بيت المال ما يسد به رمق أولاده، لكن عليا رده خائبا، بل أدنى حديدة ملتهبة من جسمه، فلما ضج عقيل منها، قال له علي: «ثكلتك الثواكل يا عقيل، أتئن من حديدة أحماها إنسانها للعب، وتجرني إلى نار سجّرها جبارها لغضبه... أتئن من الأذى ولا أئن من لظى»[١٠٤]

٧) «أتت عليا رضي الله عنه امرأتان تسألانه: أعرابية ومولاة لها، فأمر لكل واحدة منهما بكر[١٠٥] من طعام وأربعين درهما فأخذت المولاة الذي أعطيت وذهبت، وقالت الأعرابية: يا أمير المومنين تعطيني مثل الذي أعطيت هذه وأنا عربية وهي مولاة، فقال لها علي: إني نظرت في كتاب الله عز وجل فلم أر فيه فضلا لولد إسماعيل على ولد إسحاق عليهما السلام»[١٠٦]

٨) جاء جعدة بن هبيرة إلى علي رضي الله عنه فقال: «يا أمير المومنين يأتيك الرجلان أنت أحب إلى أحدهما من نفسه وأهله وماله، والآخر لو يستطيع أن يذبحك لذبحك فتقضي لهذا على هذا، فَلَهَزَهُ[١٠٧] علي وقال: إن هذا شيء لو كان لي لفعلت، ولكن إنما ذا شيء لله»[١٠٨].

١٠٤- علي المفترى عليه - ص ٨٦.

١٠٥- الكرُّ: ج كرار وأكرار: مكيال، وقيل إنه أربعون إردبا، وقيل غير ذلك.

١٠٦- التاريخ الاسلامي - ج ٣ - ص ١٠ - ١١.

١٠٧- لهزه: لكزه: أي ضربه بجمع كفه في اللهزمة والرقبة.

١٠٨- نفس المصدر - ج ٣ - ص ١٠ - ١١.

الباب الثاني

الحركة السبئية ودورها في أحداث الفتنة

تمهيد :

أ ـ تساؤلات ملحة :

من الطبيعي ـ ونحن نواجه موضوع الفتنة [1] ـ أن نطرح التساؤلات الملحة التالية :

- ما هو التحول الذي طرأ على المجتمع الاسلامي زمن الخليفة عثمان رضي الله عنه ؟
- ما هي الأيدي الخفية التي كانت وراء تلك الأحداث الدامية ؟
- وهل كانت الأحداث نتيجة عوامل اقتصادية بحتة تمثلت في صراع طبقي بين أغنياء مستغلين وفقراء مستغلين ؟
- أم كانت نتيجة صراع بين فرع أموي وآخر هاشمي ؟ بين قيسية ويمنية ؟ بين عرب وعجم ؟

١- يرد مصطلح «الفتنة» ليدل على معاني كثيرة ومن ضمنها : اختلاف الناس في الأراء وما يقع بينهم من القتال (انظر المنجد في اللغة والأعلام) وعلى هذا الأساس ارتأينا استعمال هذا اللفظ للدلالة على المعنى المذكور لا على شيء آخر غيره، خاصة أنه جاء في الحديث الصحيح الذي أخرجه الامام البخاري قال حدثنا عمر بن حفص بن غياث حدثنا أبي حدثنا الأعمش حدثنا شقيق «سمعت حذيفة يقول : بينما نحن جلوس عند عمر إذ قال : أيكم يحفظ قول النبي ﷺ في الفتنة ؟ قال : فتنة الرجل في أهله وماله وولده وجاره يكفرها الصلاة والصدقة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. قال : ليس عن هذا أسألك ولكن التي تموج كموج البحر. فقال : ليس عليك منها بأس يا أمير المؤمنين. إن بينك وبينها بابا مغلقا. قال عمر : أيكسر الباب أم يفتح، قال : لا بل يكسر. قال عمر : إذن لا يغلق أبدا قلت : أجل. قلنا لحذيفة أكان عمر يعلم الباب قال : نعم، كما يعلم أن دون غد ليلة، وذلك أني حدثته ليس بالأغاليط، فهبنا أن نسأله من الباب. فأمرنا مسروقا فسأله، فقال : من الباب ؟ قال : عمر». (الفتح ـ ج ١٣ ص ٤٨) .

أضف إلى ذلك أن عثمان رضي الله عنه سمى ما وقع في آخر عهده فتنة، فقد جاء في رسالته إلى معاوية رضي الله عنه بشأن أبي ذر رضي الله عنه : «إن الفتنة قد أخرجت خطمها وعينيها، فلم يبق إلا أن تثب فلا تنكأ القرح». (معاوية بن أبي سفيان صحابي كبير وملك مجاهد ـ ص ١٢٥) .

ولسنا هنا مسايرين لطه حسين الذي يصدر في تصوره لهذه الأحداث عن روح استشراقية فأطلق عليها «الفتنة الكبرى» فرغم خطورة هذه الأحداث في تاريخ الاسلام لم تصل إلى هذا المستوى خاصة إذا فهمنا أسبابها ودوافعها، وهذا البحث محاولة في هذا السبيل.

- أم أنها كانت نتيجة مخطط تآمري رهيب لف العالم الاسلامي من كل جوانبه تاركا فيه شروخا رهيبة ؟

ب ـ طبيعة المجتمع الاسلامي في عهد الخليفة عثمان رضي الله عنه.

لقد عرفت الدولة الاسلامية تحولات كبرى شملت مختلف الجوانب خاصة في خلافة عثمان رضي الله عنه نورد أهمها فيما يلي :

١ـ اتساع رقعة الدولة الاسلامية وصعوبة التحكم في الأطراف البعيدة.

٢ـ دخول أجناس متعددة بعقائدها وأفكارها وعاداتها وأخلاقها المتباينة ـ من فرس وروم وقبط ـ في الاسلام ومثل هذا يستدعي سعيا حثيثا لصهر تلك الأجناس في بوتقة المبادىء الاسلامية.

٣ـ تظاهر العناصر الوافدة من الأجناس الأخرى باعتناق الاسلام قصد المكر به والتآمر عليه وضربه من الداخل، نظرا لما قام به من هدم عقائدها وتقويض أساطيرها التي تمرغت في أوحالها قرونا عديدة، بالاضافة إلى أنه أطفأ نار المجوسية «المقدسة» التي ظلت مشتعلة مئات السنين كما أطفأ نار الوثنية وجرد الطغاة ـ من كهان، وأباطرة وملوك وأمراء ووزراء ووجهاء ـ مما كانوا عليه من غطرسة واستعلاء واستغلال لشعوبهم.

4 تشكل طبقة الأعراب[٢] الذين أثروا من الفتوحات الاسلامية، وكنزوا الأموال واستوطنوا المناطق الخصبة بفعل تهافتهم على الدنيا، ونفاقهم الذي تشربته قلوبهم، وهذه هي طبقة الرعاع التي لعبت دورا خطيرا فيما وقع من أحداث.

جـ ـ الأفعى اليهودية :

في هذا الظرف العصيب الذي بدأ العالم الاسلامي ينعطف فيه انعطافة حضارية ظهرت بوادرها منذ أواخر عهد عمر بن الخطاب رضي

٢ـ هذه الطبقة البدوية لم تكن تمثل إلا أقلية داخل الجيوش الاسلامية.

الله عنـه، تحركت الأفعى اليهـودية لتنفث سمـومهـا في أوصال العالم الاسـلامي مستغلة الأوضاع الآنفة الذكر، معتمدة أسلوب (السرية) و(الطعن من الخلف) بعد أن عجزت في خيبر وغيرها من المعارك عن المـواجهة المكشوفة، تحركت لتضرب على وتر العصبية، فتثير الأحقاد القبلية التي طمرها الاسلام. ولتضرب على وتر الاقتصاد فتلفق التهم ضد الولاة والخليفة عثمان رضي الله عنه نفسه، وتتهمهم بالاستغلال! كي تخلق أوهاما وأكاذيب حول صراع مفتعل بين أغنياء وفقراء. وكان تحركها على مستويين خطيرين:

ـ مستـوى الاسرائليات الجـديدة المتمثلة في دس الأكـاذيب على الرسول ﷺ، ومحاولة هدم العقيدة الاسلامية من الداخل، وقد تزعم هذه الحركة الفكرية التخريبية (كعب الاحبار)[٣] زمن عثمان رضي الله عنه[٤].

ـ المستـوى السياسي: حيث طبق اليهود بخبث المبدأ الماكر (فرق تسد)، فانتدبوا كعبا الأحبار لإثارة الأمويين على بني هاشم، وانتدبوا عبـد الله بن سبـأ لاثارة الهاشميين على بني أمية كما يؤكد ذلك سامي النشـار[٥]. واستـطاع هذا الأخـير أن يكـون حركة ضخمة، ومؤامرة رهيبة، لعبت أخطر الأدوار فيما عجّ به العالم الاسلامي آنذاك من فتن، وتركت بصماتها القذرة على تلك المرحلة من تاريخنا المجيد. ولذلك نرى ضرورة الوقوف عندها بالقدر الذي يكشف القناع عن وجهها المظلم، ليعرف المجرم الخفي، وتُلقى عن عاتق الأبرياء آصار الاتهام الظالم.

٣- كعب الأحبار: هو أبو إسحاق كعب بن مانع الحبر، يمني من مسلمة أهل الكتاب، أسلم في زمن الخلفاء الراشدين، وروى عن الصحابة بعض الأحاديث النبوية، ورووا عنه شيئا من قصص النبيين. توفي بحمص سنة ٣٢هـ.

٤- نشأة الفكر الفلسفي في الاسلام - ج ١ - ص ٦٨ - ٦٩.

٥- نفس المرجع ونفس الصفحة.

الفصل الأول
الحركة السبئية

أ ـ مرحلة التأسيس : الوثيقة التاريخية :

«يقول يزيد الفقعسي : كان عبد الله بن سبأ يهوديا من أهل صنعاء أمه سوداء، فأسلم زمن عثمان رضي الله عنه **(٢٩ هـ تقريبا)** ثم انتقل في بلدان المسلمين يحاول ضلالتهم، فبدأ بالحجاز ثم الكوفة، ثم الشام، فلم يقدر على ما يريد عند أحد من أهل الشام، فأخرجوه حتى أتى مصر فاعتمر فيهم، فقال لهم فيما يقول : لعجب ممن يزعم أن عيسى يرجع ويكذب بأن محمداً يرجع، وقد قال تعالى : ﴿إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد﴾[٦] فمحمد أحق بالرجوع من عيسى قال : فقبل ذلك عنه ووضع لهم الرجعة فتكلموا فيها ثم قال لهم بعد ذلك : إنه كان ألف نبي، ولكل نبي وصي، وكان علي وصي محمد ﷺ ثم قال : محمد خاتم الأوصياء ثم قال لهم بعد ذلك : من أظلم ممن لم يجز وصية رسول الله ﷺ وتناول أمر الأمة، ثم قال لهم بعد ذلك، إن عثمان أخذها بغير حق، وهذا وصي رسول الله ﷺ فانهضوا في هذا الأمر فحركوه، وابدأوا بالطعن على أمرائكم، وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تستميلوا الناس وادعوهم إلى هذا الأمر»[٧].

هذا النص التركيبي يشرح حلقات المؤامرة كاملة من نقطة البدء إلى نقطة الانتهاء فهو وثيقة تاريخية تعرف بابن سبأ، وتذكر مبادىء حركته وأسلوب عمله.

٦- سورة القصص آية : ٨٥. والمعاد : قيل انه يوم القيامة ـ وقيل أنه بشارة للرسول ﷺ بالرجوع إلى مكة فاتحا.

٧- تاريخ الأمم والملوك ج٣ - ٣٧٨ السري عن شعيب عن سيف عن عطية عن يزيد الفقعسي. والسري قال عنه علماء الرجال أخباري عارف : ثقة في التاريخ.

١- بطاقة تعريف :

هو عبد الله بن سبأ، ويلقب بابن السوداء من يهود اليمن، واليمن تتميز بعدة ظواهر تاريخية :

- قد شهدت التكتل اليهودي بفعل الهجرة إليها من الحجاز بعد أن أجلاهم الرسول ﷺ عنه.

- كما كانت اليمن مستعمرة فارسية وحبشية، وقد خلف فيها ذلك الاستعمار بعض التلوينات المذهبية والعقائدية.

- وشهدت أيضا انتفاضة على الحكم المركزي في عهد النبي ﷺ. وبعد وفاته تحت زعامة الأسود العنسي(٨)، وتحت مظلة حروب الردة(٩).

وقد ذهب ابن كثير في «البداية والنهاية» والبغدادي في «الفَرْقُ بين الفِرَق» إلى اتهامه بالعمالة لدولة الروم حيث يقول : «ان الجمعية التي أنشأها ابن سبأ كانت تعمل لحساب دولة أجنبية هي دولة الروم التي انتزع منها المسلمون لسنوات قريبة قطرين كبيرين واسعين غنيين : مصر والشام».

ويؤكد حقيقة هذا الاستنتاج ما يلي :

* نزوحه إلى الشام إبان الصراع الضاري المستأسد بين المسلمين والروم، والذي بلغ ذروته في معركة ذات الصواري **(٣١هـ - ٦٥١م)** هذه المعركة التي فتحت الباب لمعاوية رضي الله عنه وغيره لمحاولة فتح القسطنطنية.

* قدرته المالية العجيبة في الانفاق على حركته التخريبية الكبيرة التي تضم مئات الأفراد وتشمل عدة أقطار إسلامية.

وينبهنا أبو خلف الأشعري في كتابه «المقالات والفرق» إلى أنه كان داعية متحمسا ليهوديته قبل أن يعلن إسلامه. ومثل هذه الحقيقة تطرح

٨- ثار الأسود في حياة الرسول ﷺ وحاربه فقتل وعاد الاسلام في اليمن كما كان.

٩- هي الحروب التي وقعت بعد وفاة الرسول ﷺ زمن الخليفة أبي بكر رضي الله عنه ضد القبائل الحديثة العهد بالاسلام. والتي تسكن أطراف شبه الجزيرة العربية لما ارتدت عن الاسلام، وأرادت الاقتصار على الصلاة دون الزكاة.

علامة استفهام حول سبب إعلانه الاسلام وانضمامه إلى الصف الاسلامي .

وقد قام لفيف من الكتاب ـ من مستشرقين وغيرهم ـ بإنكار وجود ابن سبأ ومن ضمنهم اليهودي د. برنارد لويس الذي اعتبره شخصية مختلقة من طرف أهل السنة أثناء صراعهم الحامي مع الشيعة ! وقد تبعه في ذلك د. طه حسين في كتابه «الفتنة الكبرى» ـ الذي يعتبر بحق فتنة كبرى في ميداني الفكر والتاريخ الاسلاميين[١٠] ـ مستندا إلى بعض الحجج الواهية ومنها :

أنه لم يذكر إلا على لسان الرواة المتأخرين ، وهذا خطأ فادح فالطبري (٢٢٥هـ - ٣١٠هـ) الذي ذكره ليس من الرواة المتأخرين ، وكذلك سيف بن عمر الذي يعد من كبار المؤرخين القدماء ، كما أنه شيخ الطبري والبلاذري (ت ٢٧٢ هـ) وهو من مرتبة شيوخ ابن سعد (١٦٨هـ - ٢٣٠هـ) .

* انه لم يرد ذكره في «أنساب الأشراف» للبلاذري وفي هذا خطأ أيضا . إذ إن عدم ذكر البلاذري له لا يعني أسطورة وجوده مع إجماع جل المؤرخين على ذكره كالطبري وابن كثير والشهرستاني وابن حزم والبغدادي والاسفراييني وابن قتيبة وابن الأثير والذهبي وخليفة بن خياط واين تيمية وابن عبد ربه وابن خلدون وابن العربي ، كما ورد ذكره عند قدماء مؤرخي الشيعة كسعد بن عبد الله بن خلف الأشعري ، والنوبختي . هذا مع العلم بأن كتاب : «أنساب الأشراف» كتاب ملفق ضاعت أجزاء منه ، أما الجزء الذي وردت فيه ترجمة عثمان رضي الله عنه فقد طبعه أحد طغاة الصهاينة في مطبعة بالقدس[١١] سنة ١٩٣٦م والبلاذري نفسه لا يعتمد على أخباره لأنه غير متفق على توثيقه[١٢] .

١٠- وقد انخدع بهذه الفرية مجموعة من الباحثين نذكر منهم على سبيل المثال : أحمد الواسني في كتابه (نظرات جديدة في تاريخ الأدب) ود. محمد كامل الحسيني في كتابه (أدب مصر الفاطمية) ود. حامد حفني داوود في كتابه (التشيع ظاهرة طبيعية في إطار الدعوة الاسلامية) . كما أنكر وجوده بعض متأخري الشيعة من أمثال د. علي الوردي في كتابه (وعاظ السلاطين) ود. كامل مصطفى الشبي في كتابه (الصلة بين التصوف والتشيع) .

١١- المؤامرة على الاسلام - ص ١١٧ .

١٢- انظر ترجمته في : لسان الميزان - وتهذيب تاريخ دمشق - والبداية والنهاية والنجوم الزاهرة .

٢- مبادىء حركة ابن سبأ :

من خلال الوثيقة السابقة نرى أن مبادىء حركته ترتكز على ثلاثة أسس هامة :

- الرجعة : أي رجوع الرسول إلى الدنيا بعد رفعه كما جرى لعيسى .
- الوصية : أي أن عليا هو أحق الناس بالخلافة بعد وفاة الرسول ﷺ .
- الامامة : وهي فكرة فارسية تؤمن بفكرة الوراثة في الحكم .

وهــذه المبــادىء ليست إلا خلطا للمفـاهيم اليهـودية والنصرانية والمجـوسية، وإلبـاسها ثوب الاسلام ويضيف إليها د. سامي النشار بعض المبادىء الأخرى ومنها :

- معـراج علي الروحي، أي أنه صعد إلى السماء وسيعود كعيسى بن مريم عليه السلام وقد اعتبر القمي في كتابه «المقالات» هذه الفكرة مذهب (السبئية والحربية) .
- وكـون علي رضي الله عنـه إلـه العالمين، فهو مستقر في السحاب، والرعد صوته والبرق سوطه، وإذا سمع السبئية الرعد قالوا : (السلام عليك يا أمير المؤمنين) .

ويشير د. سامي النشار إلى خطورة هذه المبادىء بقوله : «ويبدو أن هذه أول بذور لأفكار التوقف والمهدية والغيبية والرجعة والقول بتناسخ الجـزء الإلهي في الأئمـة بعد علي»[١٣] ويهدف ابن سبأ من وضع هذه المبادىء إلى ما يلي :

- إفساد الحصانة العقدية الاسلامية بما يناقضها من عقائد الديانات الأخرى.
- تخريب الـوحـدة السياسية للمسلمـين المتمثلة في تجمعهم الأخوي لتحقيق أهـداف موحـدة وفي طاعتهم المخلصة الحرة لعمالهم، وفي انضـوائهم تحت لواء خليفـة واحـد. وفي هذا الصـدد يقـول أنور الجنـدي : «وقـد كان ابن سبـأ هو أول من أدخـل في أفق الفكـر

١٣- نشأة الفكر الفلسفي في الاسلام، ج ٢ – ص ٤٠ – ٤١ .

الاسلامي مفاهيم الوصية والرجعة والتناسخ . . وقال برجعة النبي ﷺ، ودعا لألوهية علي رضي الله عنه. عن ابن عساكر أنه لما بويع علي رضي الله عنه قام إليه ابن سبأ فقال له : «أنت خلقت الأرض وبسطت الرزق» فنفاه علي رضي الله عنه إلى ساباط المدائن. كما يقول ابن حجر العسقلاني : «إن ابن سبأ من غلاة الزنادقة»(١٤).

٣- تأسيس الحركة :

بدأ تأسيس الحركة منذ تظاهر بالاسلام (٢٩هـ) واستفحل أمرها في أواخر عهد عثمان رضي الله عنه (٣٤هـ) ثم شرع ابن سبأ يتنقل عبر أرجاء العالم الاسلامي مبشرا بدعوته، فبدأ بالحجاز، ثم البصرة فالكوفة فالشام، وأخيرا مصر التي اتخذها مركزا ومقرا للتوجيه والتخطيط، أو كما يقول الطبري : «فاعتمر فيهم».

وخلال تنقلاته تلك كان يختار دعاة له من بين :

« * أصحاب الغلو في الدين الذين ينكرون الصغائر، ويرتكبون في سبيل إزالتها الكبائر.
* أصحاب العصبية ضد قبيلة قريش.
* الموتورون من حدود شرعية أقيمت عليهم من طرف ولاتهم.
* الحمقى ذوو القلوب الضعيفة، وأغلبهم من العامة طلاب المال (طبقة الأعراب التي مرت بنا سابقا).
* ذوو الطمع من الذين كفروا بنعم عثمان كربيبه محمد بن أبي حذيفة.
* المتعجلون للرئاسة الذين اغتروا بفصاحتهم أو بشجاعتهم.
* المجوس واليهود ومخلفات الردة.
* المخدوعون المتأثرون بالاشاعات السيئة.»(١٥).

وقد أوجد دعاة في معظم الأمصار التي مر بها، وهم :

١٤- المؤامرة على الاسلام - ص ١١٣

١٥- العواصم من القواصم - ص ٥٨.

- في البصرة :

- حرقوص بن زهير السعدي (من بني تميم).
- حكيم بن جبلة.
- بشر بن شريح.

- وفي الكوفة :

- الأشتر مالك بن حارث النخعي (من قبيلة النخع اليمنية).
- زيد بن صوحان العبدي.
- عمرو بن الأصم.

- وفي مصر :

- عبد الرحمان بن عديس البلوي.
- الغافقي بن حرب العكي (من القبائل اليمنية التي نزلت مصر).
- سودان بن حمران السكوني (من قبائل مراد اليمنية النازلة في مصر)[١٦].

هذا وقد فشل ابن سبأ في اكتساب أنصار بالحجاز الذي كان تحت إمرة عبد الرحمان بن خالد بن الوليد الداهية الأريب، وبالشام الذي كان تحت إمرة معاوية بن أبي سفيان المتيقظ الفطن، وإن حاول استمالة بعض كبار الصحابة لتعزيز حركته ودعوته، وإضفاء المشروعية عليها كما يتضح من النص التالي :

«لما ورد ابن السوداء الشام، لقي أبا ذر فقال : يا أبا ذر ألا تعجب إلى معاوية يقول : المال مال الله. إلا إن كل شيء لله كأنه يريد أن يحتجنه دون المسلمين ويمحو اسم المسلمين، فأتاه أبو ذر فقال : ما يدعوك إلى أن تسمي مال المسلمين مال الله ؟ فقال معاوية : يرحمك الله يا أبا ذر، ألسنا عباد الله، والمال ماله، والخلق خلقه، والأمر أمره، قال أبو ذر : فلا تقله، قال معاوية : فإني لا أقول إنه ليس لله، ولكن سأقول مال المسلمين. وأتى ابن السوداء أبا الدرداء، فقال له أبو الدرداء : من

١٦- توجد تراجم لا غلبية هؤلاء في هوامش كتاب «العواصم من القواصم».

أنت ؟ أظنك والله يهوديا ! فأتى ابن السوداء عبادة بن الصامت رضي الله عنه فتعلق به ابن الصامت رضي الله عنه فأتى به معاوية وقال : هذا والله الذي بعث عليك أبا ذر»[١٧].

يعلق د. سامي النشار على هذه الرواية بقوله : «ويذهب بعض المؤرخين إلى أن عددا من الصحابة وبخاصة أبي ذر الغفاري وعمار بن ياسر رضي الله عنهما، وغيرهما من صغار الصحابة وأبنائهم كمحمد بن أبي بكر ومحمد بن أبي حذيفة قد وقعوا أيضا في أحابيل هذا الرجل[١٨].

ورغم ذلك فقد فشل ابن سبأ في استمالة كبار الصحابة إليه لافتضاح أمره بالشام لكنه نجح في استمالة شابين طامحين في مقتبل العمر، وهما محمد بن أبي بكر ومحمد بن أبي حذيفة (اللذين أظهرا عيب عثمان رضي الله عنه وما غير وما خالف أبا بكر وعمر، وجعلا يقولان دمه حلال)[١٩]، وقد استغل في الأول صغر سنة (٢٤ هـ) وحبه للرئاسة كما قال عنه عثمان رضي الله عنه (فإنه أعجب حتى رأى أن الحقوق لا تلزمه). كما استغل في الثاني حقده العنيف على عثمان رضي الله عنه حينما امتنع عن توليته، وقد سئل سعيد بن المسيب رضي الله عنه عن محمد بن أبي حذيفة ما دعاه إلى الخروج على عثمان رضي الله عنه، فقال : «كان يتيما في حجر عثمان، فكان عثمان والي أيتام أهل بيته، ومحتمل كلهم، فسأل عثمان العمل حين ولي، فقال : يا بني، لو كنت رضا ثم سألتني العمل لاستعملتك، ولكن لست هناك، قال : فأذن لي فلأخرج، فلأطلب ما يقوتني، قال : إذهب حيث شئت، وجهزه من عنده، وحمله وأعطاه، فلما وقع إلى مصر كان فيمن تغير عليه أن منعه الولاية»[٢٠].

ب ـ مرحلة التنفيذ :

أدرك ابن سبأ خلال تنقلاته في الأمصار الاسلامية أن المجتمع الاسلامي يتميز بما يلي :

١٧- تاريخ الأمم والملوك، ج ٣ ص ٣٣٦.

١٨- نشأة الفكر الفلسفي في الاسلام، ج ١، ص ٦٨.

١٩- البداية والنهاية، ج ٧ ص ١٥٧- رواية للواقدي عن معمر عن الزهري.

٢٠- تاريخ الأمم والملوك ج ٣ ص ٤٢٨- عن السري عن شعيب عن سيف.

١- الوحدة الداخلية (الاخوة الاسلامية)، فسعى إلى تحطيمها بإثارة الصراع بين الأغنياء والفقراء، وبين العمال والجماهير، وبين الجماهير وخليفتهم.

٢-حصانة العقيدة الاسلامية، فحاول إفسادها بمجموعة من المفاهيم الفارسية المجوسية واليهودية والغنوصية.

٣- عدالة التوزيع المالي، فحاول عن طريق الدعاية المغرضة تشويهها بما يلي :

* إيهام الناس بأن هناك محرومين من الأموال.
* وبأن هناك ظلما في القسمة والتوزيع.
* وبأن هناك خيانة واستغلالا من طرف العمال.
* وبأن هناك استئثارا بأموال الخزينة من طرف قريش عموما، والفرع الأموي - الحاكم - على وجه الخصوص.

٤- قبول النقد، حيث استغل سماحة المجتمع المسلم وتفتحه، وقبول النقد من طرف المسؤولين ولو كان مُراً، وجرأة الناس عليهم في النصيحة، فبدأ يلفق الأخبار الكاذبة والتهم الباطلة عن طريق الاشاعات والرسائل المزورة، ويدعم ذلك بتأويل باطني للآيات القرآنية.

وبهذه الوسائل دعا إلى الثورة على عثمان رضي الله عنه وولاته ناهجا في ذلك خطة من عدة مراحل :

أولا : إثارة الشعب على العمال :

- البصرة : هيج السبئيون أهلها على أبي موسى الأشعري[٢١] متهمينه بالغفلة عن أمور الناس، فعزل وولي بعده عبد الله بن عامر بن

٢١- اسمه عبد الله بن قيس، استعمله النبي ﷺ على بعض بلدان اليمن، ثم استعمله عمر رضي الله عنه على البصرة، فافتتح الأهواز وأصبهان، وهو الذي فقه أهل البصرة واقرأهم القرآن. قال ابن المديني : قضاة الأمة أربعة : عمر وعلي، وأبو موسى، وزيد بن ثابت» مات سنة 42 هـ. وهو ابن ثلاث وستين سنة.

كريز الـذي فطن لدور ابن سبـأ فطرده لكن بعد أن ترك بذرة خبيثة استفحل أمرها من بعد.

ـ **الكـوفـة** : وقد شهدت تعاقب أربعة عمال، أولهم سعد بن أبي وقاص الذي عزل من طرف عثمان بن عفان رضي الله عنه ليتولى بعده الوليد بن عقبة الذي لم يسلم من كيد السبئيين إذ اتهموه بشرب الخمر زورا وبهتـانـا، وقـد نفذوا هذه الخطة من خلال بعض أثرياء الكوفة كجندب الأزدي وأبي مورع الأسدي وغيرهم ممن ثكلوا في أبنائهم لحدود شرعية[٢٢]. وأدى هذا الكيد إلى عزل الوليد بعد جلده، واستخلاف سعيد بن العاص الذي لم يسلم بدوره من كيد السبئيين وعلى رأسهم الأشـتر الذي أثار ضده صراعا ـلأسباب تافهةـ كان من نتيجته حنق الناس عليه ومنعهم إياه من الدخول إلى الكوفة بعد ثورة الجرعة[٢٣] سنة ٣٤هـ، وطالبوا عثمان رضي الله عنه باستبداله بأبي موسى الأشعري.

ثانيا : احتلال مصر :

ثبت عن المقريزي، وابن حجر في الاصابة أن محمد بن أبي حذيفة استغل ذهاب عامل عثمان رضي الله عنه عبد الله بن سعد بن أبي سرح إلى المدينة، فوثب على خليفته عقبة بن نافع وأزاحه عن الحكم، وحول مصر إلى مقـر للدعوة السبئية، منها تصدر الأوامر وفيها تطبخ الخطط وتلفق التهم والرسائل، وكان اليد اليمنى لتنفيذ خططها كما يتضح من النص التالي : «انتبز محمد بن أبي حذيفة على عقبة بن نافع ـخليفة ابن أبي سرحـ وأخـرجـه من الفسطاط، ودعا إلى خلع عثمان من البلاد، وأسعر البلاد، فكان يكتب الكتب على لسان أزواج النبي ﷺ ثم يأخذ الرواحل فيضمرها، والرجال فيجعلهم على ظهور البيوت، فيستقبلون بوجوههم الشمس لتلوحهم تلويح المسافر، ثم يأمرهم أن يخرجوا إلى طريق المـدينة ومصر، ثم يرسلون رسلا يخبرون الناس ليلقوهم، وقد أمرهم إذا لقيهم الناس أن يقولوا : ليس عندنا خبر، الخبر في الكتب، ثم يتلقاهم ابن أبي حذيفة فيقرأ عليهم كتب أزواج النبي ﷺ»[٢٤].

٢٢- انظر قصة ذلك في العواصم من القواصم بالهامش ص ٩٦ - ٩٧.

٢٣- والجرعة مكان مشرف على القادسية.

٢٤- تاريخ الأمم والملوك ج٣ ص ٣٧٩، عن السري عن شعيب عن سيف.

وهذا النص يؤكد ما يلي :
- سيطرة السبئيين على مصر.
- تزوير الرسائل، على لسان أزواج النبي ﷺ لإثارة الناس على عثمان رضي الله عنه.
- نوعية الألاعيب والحيل التي يخدع بها الناس ويحنقهم على عثمان رضي الله عنه.

ثالثا : الثورة العامة :

بعد الانقلاب الذي قام به السبئيون في مصر وسيطرتهم عليها أوحوا لأعوانهم بالأقطار الاسلامية أن يقوموا بحملة تشويش على العمال قصد كسب الناس لصالح حركتهم وتحريضهم على عثمان رضي الله عنه وولاته. وقد صدرت هذه الأوامر السبئية سنة ٣٤هـ كتمهيد للقيام بانقلاب في كل الأقطار الاسلامية فيما يسمى بيوم الجرعة، وهذا ما ذكره الطبري حيث يقول : «قال يزيد الفقعسي : فبث دعاته، وكاتب من كان استفسد في الأمصار، وكاتبوه، ودعوا في السر إلى ما عليه رأيهم، وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وجعلوا يكتبون إلى الأمصار بكتب يضعونها في عيوب ولاتهم، ويكاتبهم إخوانهم بمثل ذلك، ويكتب أهل كل مصر منهم إلى مصر آخر بما يصنعون، فيقرأه أولئك في أمصارهم وهؤلاء في أمصارهم حتى تناولوا بذلك المدينة وأوسعوا الأرض إذاعة، وهم يريدون غير ما يظهرون، ويسرون غير ما يبدون، فيقول أهل كل مصر : إنا لفي عافية مما ابتلي به هؤلاء، إلا أهل المدينة فإنهم جاءهم ذلك عن جميع الأمصار، فقالوا : إنا لفي عافية مما فيه الناس»

وهذا النص يؤكد ما يلي :
- وجود دعاة منظمين يعملون في كل الأماكن.
- كثرة أتباعه في الأمصار الاسلامية.
- نشاط جهازه التنظيمي السري.
- الانتشار الواسع النطاق لإشاعاته عبر العالم الاسلامي والتي لم تسلم منها عاصمة الخلافة.

- تأثر الناس وانخداعهم بها.

لقد غطى بحر الاشاعات الأمصار، ونفث في النفوس الخبيثة ريح الشر التي بدأت تهب على عاصمة الخلافة. ترى ما موقف الخليفة عثمان رضي الله عنه من ذلك؟

كان موقفه رضي الله عنه موقف العبقري الحازم المتيقظ المتبصر المقدر لثقل المسؤولية كما يبدو من الخطوات التي سلكها وهي:

١- أمر واليه على الكوفة سعيد بن العاص بإرسال المشاغبين لمعاوية في الشام - قصد ردعهم عن غيهم - وقد عقد معهم ثلاث جلسات مغلقة فشل معهم فيها لما أبدوه من تعصب وتعنت في طلب عزله (أي معاوية)، وقد أرسل إلى عثمان رضي الله عنه يخبره بشأنهم كما جاء في الرسالة التالية: «بسم الله الرحمن الرحيم، لعبد الله عثمان أمير المؤمنين من معاوية بن أبي سفيان. أما بعد، فإنك بعثت إلي أقواما يتكلمون بالسنة الشياطين وما يملون عليهم، ويأتون الناس -زعموا- من قبل القرآن، فيشبهون على الناس، وليس كل الناس يعلم ما يريدون، وإنما يريدون فرقة، ويقربون فتنة، قد أثقلهم الاسلام وأضجرهم، وتمكنت رُقَى الشيطان من قلوبهم، فقد أفسدوا كثيرا من الناس ممن كانوا بين ظهرانيهم من أهل الكوفة، ولست آمن إن قاموا وسط أهل الشام أن يغروهم بسحرهم وفجورهم، فارددهم إلى مصرهم، فلتكن دارهم في مصرهم الذي نجم فيه نفاقهم والسلام»[٢٥].

٢- بعث خاصة رجاله من كبار الصحابة ليتحققوا من وضع ولاته، فرجعوا وقالوا له:
«ما أنكرنا شيئا ولا أنكره أعلام المسلمين وعوامهم، وأمراؤهم يقسطون بينهم ويقومون عليهم»[٢٦]. ولم يرجع عمار بن ياسر بعد أن استماله البغاة لتأثره بكلامهم، ويرجع سعيد بن المسيب رضي الله عنه سبب انتقاده لعثمان رضي الله عنه إلى ما يلي: «فقد كان بينه وبين عباس بن عتبة بن أبي لهب خلاف فضربهما عثمان»، وقد جيء بعمار إلى المدينة مكرما، فقال

٢٥- المصدر نفسه، ج ٣ - ص ٣٦٦، ٣٦٧.

٢٦- تاريخ الأمم والملوك - ٣ ص ٤٢٨.

له عثمان رضي الله عنه : «يا أبا اليقظان، قذفت ابن أبي لهب أن قذفك، وغضبت علي أن أخذت لك بحقك وله بحقه، اللهم وقد وهبت ما بيني وبين أمتي من مظلمة، اللهم إني متقرب إليك بإقامة حدودك في كل أحد ولا أبالي»

٣- وجه خطابا عاما للأمة يدعوها إلى انتقاد عماله في موسم الحج، كما يتضح من النص التالي : «أما بعد فإني آخذ العمال بموافاتي في كل موسم وقد سلطت الأمة منذ وليت الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فلا يرفع علي شيء، ولا أحد من عمالي إلا أعطيه، وليس لي ولعيالي حق قبل الرعية إلا متروك لهم، وقد رفع إلي أهل المدينة أن أقواما يشتمون وآخرون يضربون، فيا من ضرب سرا وشتم سرا، من ادعى شيئا من ذلك فليواف الموسم، فليأخذ بحقه حيث كان، مني أو من عمالي، أو تصدقوا فإن الله يجزي المتصدقين. فلما قرىء في الأمصار أبكى الناس ودعوا لعثمان وقال إن الأمة لتمخض بشر»[٢٧].

٤- استدعاء الولاة على عجل لمحاسبتهم، وقد استغل السبئيون خلو الأقطار من العمال، فدعوا أشياعهم إلى الثورة العامة للاستيلاء عليها سنة 34هـ، ولم ينجح في ذلك إلا أهل الكوفة الذين عزلوا سعيد ابن العاص.

وقد اتعد السبئيون -بعد فشل يوم الجرعة- على السنة التي بعدها (٣٥هـ) للخروج إلى المدينة.

٥- فضح عثمان بن عفان بعبقريته الفذة أمر الوفد السبئي (الوافد من الكوفة والبصرة) الذي طلب منه اعتزال الخلافة بأن أرسل إليهم برجلين يتظاهران بمشايعتهما، فحصلا منهم على حقيقة قدومهم كما تبينها الرواية الآتية : «فلما رأوهما باثوهما وأخبروهما بما يريدون، قالا : من معكم على هذا من أهل المدينة ؟ قالوا ثلاثة نفر، قالا : هل إلا ؟ قالوا : لا. قالا : فكيف تريدون أن تصنعوا ؟ قالوا : نريد أن نذكر له أشياء زرعناها في قلوب الناس، ثم نرجع إليهم فنزعم لهم أنا قررناه

٢٧- تاريخ الأمم والملوك، ج ٣ - ص ٣٧٩.

بها، فلم يخرج منها ولم يتب، ثم نخرج كأننا حجاج حتى نقدم فنحيط به فنخلعه، فإن أبى قتلناه وكانت إياها»[٢٨].

رابعا : احتلال المدينة وقتل عثمان رضي الله عنه :

يتضح من النص السابق أن الثوار قد رسموا خطوات العمل التالية بدقة ؛ من خروج على عثمان رضي الله عنه، وحصاره، ودعوته إلى خلع نفسه، وإن أبى قتلوه، تمّ هذا سنة ٣٤هـ.. وقد كانوا أوفياء في خروجهم كما ذكر الطبري : «فذهبوا ورجعوا إلى بلادهم على أن يغزوهم مع الحجاج كالحجاج، فتكاتبوا وقالوا : موعدكم ضواحي المدينة في شوال، حتى إذا دخل شوال من سنة ١٢ من خلافة عثمان رضي الله عنه ضربوا كالحجاج فنزلوا قرب المدينة»[٢٩] وقد خرج الثوار متفرقين منظمين :

١- فجماعة مصر في أربع فرق (عددهم يقدر بألف رجل) وقادتهم :
- عبد الرحمن بن عريس البلوي.
- كنانة بن بشر التجيبي.
- سودان بن حمران.
- قتيرة السكوني.
- الرئيس الأعلى : الغافقي بن حرب العكي.

٢- وجماعة الكوفة في أربع فرق (بنفس العدد) وقادتهم :
- زيد بن صوحان العبدي.
- الأشتر النخعي.
- زياد بن النضر الحارثي.
- عبد الله بن الأصم.
- الرئيس الأعلى : عمرو بن الأصم.

٣- وجماعة البصرة كذلك في أربع فرق (وبنفس العدد) قادتهم :
- حكيم بن جبلة العبدي.

٢٨- نفس المصدر السابق.

٢٩- نفس المصدر ص ٣٨٥، ٣٨٦.

- دريج بن عباد العبدي .
- بشر بن شريح .
- ابن المحرش بن عمرو الحنفي .
- الرئيس الأعلى : حرقوص بن زهير السعدي .

وأرسلت الفرق الثلاث ممثلين لها لكل من علي وطلحة والزبير ممن يربضون بأبواب المدينة لمنع الثوار من الدخول، فحاولوا منعهم بشتى الوسائل لاستمالتهم لحركتهم، واستنصارهم لقتل عثمان رضي الله عنه مغرين إياهم بنيل الخلافة بعده. وبعد فشلهم تظاهروا بالرغبة في الخروج إلى أقطارهم، لكن بعد لقاء عثمان رضي الله عنه، فسمحوا لوفد منهم بلقائه، وأخذوا ميثاقه وكتبوا ذلك في كتاب، وفي ذلك يقول ابن العربي : «فأخذوا ميثاقه وكتبوا عليه ستة شروط أو خمسة في كتاب، وأخذ عليهم أن لا يشقوا عصا ولا يفرقوا جماعة»(٣٠) ثم تظاهر الثوار بالرجوع إلى بلدانهم قصد خداع أهل المدينة، وأوحى ابن سبأ إلى الأشتر وحكيم بالتخلف بالمدينة في مكان اسمه البويب لتزوير رسالة(٣١) على عثمان يدعو فيها واليه على مصر لقتلهم.

ولنا ملاحظات على هذه الرسالة :
- ان أخبارها المزيفة مطعون في صحتها إذ لا يعرف قائلها (مرسلها).
- لا يعقل أن يرسل عثمان رضي الله عنه إلى محمد بن أبي حذيفة وهو مع الثوار.
- ثم إن عليا رضي الله عنه فضح أمرهم حينما قال لهم بعد رجوعهم : «كيف علمتم يا أهل الكوفة ويا أهل البصرة بما لقي أهل مصر وقد سرتم مراحل ثم طويتم نحونا هذا والله أمر أبرم بالمدينة!»(٣٢).

كما جاء وفد آخر إلى علي رضي الله عنه فقالوا له : «ألم تر إلى عدو الله كتب فينا بكذا وقد أحل الله دمه، قالوا له : فقم معنا إليه، قال : والله

٣٠- العواصم من القواصم ص ١٢٥.
٣١- انظر العواصم، هامش ص ١٠٩.
٣٢- تاريخ الأمم والملوك ج 5 - ص ٣٨٥.

لا أقوم معكم. قالوا: فلم كتبت إلينا؟ قال والله ما كتبت إليكم، فنظر بعضهم إلى بعض»[٣٣].

وقد عاتب مسروق بن الأجدع أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بأنها كتبت إلى الناس تأمرهم بالخروج على عثمان رضي الله عنه فقالت: «أقسم بالله الذي آمن به المؤمنون وكفر به الكافرون أني ما كتبت إليهم سوادا في بياض»[٣٤].

وبهذه الحجة السخيفة (الرسائل المزورة) دخلوا المدينة على حين غرة وسيطروا عليها وقاموا بدوريات مسلحة تمنع الناس من الاجتماع كما يقول الطبري: «وكانوا زمرا بالمدينة يمنعون الناس من الاجتماع». كما مارسوا إرهابا يتجلى فيما يلي:

- التضييق على الناس، وعلى أمهات المومنين (أم حبيبة خصوصا)، وهذا ما دفعهن إلى الفرار إلى مكة والاحتماء بها.
- حصار عثمان رضي الله عنه أربعين يوما ومنع الماء عنه.

وحينما علموا أن عثمان رضي الله عنه أرسل لاستدعاء الجيوش من الأقطار الاسلامية ألحوا عليه في الاعتزال مرة أخرى.

ولم يقف الصحابة رضي الله عنهم -هنا- مكتوفي الأيدي منذ البداية، بل حاولوا نصرة عثمان رضي الله عنه كما يتضح مما يلي:

- قال أبو هريرة رضي الله عنه: «اليوم طاب الضرب معك، قال: عزمت عليك لتخرجن».
- وجاء الحسين والحسن وابن عمر وابن الزبير فعزم عليهم في وضع سلاحهم وخروجهم ولزوم بيوتهم.

وقال عثمان رضي الله عنه: «اعزم على كل من رأى أن عليه سمعا وطاعة إلا كف يده وسلاحه»[٣٥].

وسبب إصرار عثمان رضي الله عنه على رفض القتال يعود إلى الإعتبارات الآتية:

٣٣- انظر العواصم من القواصم ص ١٢٩.
٣٤- نفس المصدر والصفحة.
٣٥- انظر العواصم من القواصم ص ١٣٣ - ١٣٤.

- كرهه لأن تراق دماء المسلمين في هذه الفتنة وفيهم الصحابة وأبناؤهم، وهو كخليفة مسؤول عن كل قطرة دم تراق بغير حق.

- ثم علمه بأنه سيموت شهيدا كما ورد في الحديث الذي رواه أحمد والترمذي وابن ماجه، ولهذا فهو يريد أن يفتدي الأمة بنفسه.

- تعذر القيام بأي عمل مناوىء ضد الثوار لسيطرتهم المحكمة على المدينة، لذلك رأى عثمان رضي الله عنه أن مقاومتهم ضرب من الانتحار، فلابد من تطويق المدينة بجيوش إسلامية كما توضحه الرسالة التي أرسلها إلى الأمصار: «... فهم كالأحزاب أيام الأحزاب أو من غزانا بأحد، إلا ما يظهرون، فمن قدر على اللحاق بنا فليلحق»[٣٦].

وكانت رجة عنيفة هزت أرجاء العالم الاسلامي وحركت أهله لإنقاذ المدينة المحتلة، فأرسل معاوية حبيب بن مسلمة الفهري، وأرسل أهل الكوفة القعقاع بن عمرو، وأرسل أهل البصرة عمران بن حصين رضي الله عنهم وحينما علم الثوار بالخبر، وخافوا فشل مساعيهم، هجموا على منزل عثمان رضي الله عنه على حين غرة وقتلوه أبشع قتلة حيث:

- أحرقوا باب منزله بالنار.
- ضربه الغافقي بحديدة فسالت الدماء على المصحف.
- جروه من رجله.
- قطعوا أصابع زوجته نائلة حينما كانت تدافع عنه.
- اتكأ التجيبي عليه في صدره بالسيف.
- وثب عليه عمرو بن الحمق فطعنه ست طعنات.
- وثب عليه عمرو بن ضابىء فكسر ضلعا من أضلاعه.
- نهبوا ما في المنزل.
- قتلوا بعض مواليه الذين حاولوا الدفاع عنه ورموهم في المزابل لتأكلهم الكلاب.
- منعوا دفنه في مقابر المسلمين.

٣٦ - تاريخ الأمم والملوك ج ٣ - ص ٣٨٥.

ترى هل هؤلاء مسلمـون يبحثـون عن حق ضائع مسلوب كما يدعون ؟ وهل ما حدث خلاف بسيط بين المسلمين أم هو كما رأينا من خلال هذا العرض الدامي المحزن مجزرة كمجازر الصهاينة والشيوعيين الذين لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة ؟! .

إنها مؤامرة دنيئة تستهدف النيل من القيادة المسلمة المخلصة، ومحاولة لشغـل المسلمـين عن الجهاد وصرفهم عن بناء الدولة الاسلامية التي تتشـوق إليها الانسانية لانقاذها من ظلمات القهر والتعذيب والتشريد ودلها على الصراط المستقيم صراط الله خالق الانسان والعالم بما يصلح له دنيا وأخرى.

الفصل الثاني
شبه واهية

أراد السبئيون أن يشوهوا سمعة عثمان رضي الله عنه، وأن يقنعوا الناس -من ثم- بسلامة موقفهم، ومشروعة تحركاتهم، فأثاروا حوله شبها كثيرة، ظنوها تقصم ظهره، وتنسف كل ماله من حرمة في النفوس، ولم يقفوا -وهم يلفقون الاتهامات- عند فترة خلافته، وإنما راحوا يحصون عليه أنفاسه، ويسجلون كل ما يظنونه مسيئا إلى تاريخه، حتى قبل الخلافة. وسنستعرض هنا بعض شبههم الواهية -قبل الخلافة وبعدها- ليتبين الحق من الباطل، ويظهر الصبح لذي عينين، وليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة.:

أ - قبل الخلافة :

لم يجدوا في تاريخه المشرق -قبل الخلافة- إلا هذه الشبه الثلاث :

١- فقالوا : إنه لم يشهد بدرا.
٢- وقالوا : إنه فر يوم أحد.
٣- وقالوا : إنه لم يشهد بيعة الرضوان.

وقد تولى الجواب عن هذه الشبه عبد الله بن عمر رضي الله عنهما في وجه رجل من مصر، كما وضحت ذلك الرواية التالية : أخرج البخاري من حديث عثمان بن موهب قال : «جاء رجل من أهل مصر يريد حج البيت، فرأى قوما جُلوسا، فقال : من هؤلاء القوم ؟ قالوا : هؤلاء قريش. قال : فمن الشيخ فيهم ؟ قالوا : عبد الله بن عمر. قال : يا ابن عمر، إني سائلك عن شيء فحدثني عنه، هل تعلم أن عثمان فر يوم أحد ؟ قال : نعم. فقال : تعلم أنه تغيب عن بدر ولم يشهد، قال : نعم. قال : هل تعلم أنه تغيب عن بيعة الرضوان فلم يشهدها ؟ قال نعم. قال : الله أكبر، قال ابن عمر : تعال أبين لك : أما فراره يوم

أحد، فأشهد أن الله عفا عنه وغفر له، وأما تغيبه عن بدر، فإنه كان تحته بنت رسول الله ﷺ (أي رقية)، وكانت مريضة، فقال له الرسول ﷺ : إن لك أجر رجل ممن شهد بدرا وسهمه، وأما تغيبه عن بيعة الرضوان، فلو كان أحد أعز ببطن مكة من عثمان لبعثه مكانه، فبعث رسول الله ﷺ عثمان رضي الله عنه، وكانت بيعة الرضوان بعدما ذهب عثمان رضي الله عنه إلى مكة، فقال رسول الله ﷺ بيده اليمنى : هذه يد عثمان، فضرب بها على يده، فقال : هذه لعثمان، فقال له ابن عمر : اذهب بها الآن معك»[٣٧]

وهكذا يتضح من هذه الرواية أن ما قام به عثمان رضي الله عنه له ما يبرره، كما يتبين للمتبصِّر الهدف الدنيء للسبئيين وأذيالهم ممن لا خلاق لهم.

ب ـ بعد الخلافة :

١- بشأن الولاة :

أول من أثار الشبه حول ولاة عثمان رضي الله عنه عبد الله بن سبأ، وتبعه في ذلك غلاة الشيعة كَمُدَلِّسِهم الحسن بن المطهر الحلي في كتابه «منهاج الكرامة» حيث قال : «إن عثمان ولى أمور المسلمين من لا يصلح للولاية».

ومن العجب أن الشيعة ينكرون على عثمان رضي الله عنه أنه ولى أقاربه من بني أمية، مع أن الرسول ﷺ سبقه إلى ذلك كما هو واضح من القائمة التالية التي تبين ولاة النبي ﷺ :

* والي مكة : عتاب بن أسيد بن أبي العيص بن أمية.
* والي نجران : أبو سفيان بن حرب بن أمية.
* والي صنعاء واليمن وصدقات بني مدحج : خالد بن سعيد ابن العاص.

37 ـ البخاري ج ٢ ، ص ٢٠٢ - ٢٠٣، طبعة الحلبي.

* والي تيماء وخيبر وقرى عرينة : عثمان بن سعيد بن العاص.
* والي البحرين : أبان بن سعيد بن العاص »[38].

ومن هنا قال عثمان رضي الله عنه : «أنا لم أستعمل إلا من استعمله النبي ﷺ ومن جنسهم ومن قبيلتهم، وكذلك أبو بكر وعمر رضي الله عنهما بعده»[39].

ثم إن ولاة عثمان رضي الله عنه أثبتوا جدارتهم وكفاءتهم كما يظهر من النموذجين التاليين :

- والي البصرة عبد الله بن كريز افتتح خراسان كلها وأطراف فارس وسجستان وكرمان حتى بلغ أعمال غزنة، وقضى على يزدجرد بن شهريار آخر ملوك الفرس، وهو أول من اتخذ الحياض بعرفة وأجرى فيها الماء لحجاج بيت الله الحرام، قال عنه ابن تيمية : «إن له من الحسنات والمحبة في قلوب الناس ما لا ينكر»[40].

- والي الكوفة الوليد بن عقبة، الذي قال عنه عثمان رضي الله عنه : «ما وليت الوليد لأنه أخي. وإنما وليته لأنه ابن أم حكم البيضاء عمة رسول الله ﷺ وتوأمة أبيه»[41]

كان موضع السر في الرسائل الحربية التي دارت بين أبي بكر الصديق وخالد بن الوليد رضي الله عنهما في موقعة المذار مع الفرس سنة ١٢هـ.

وفي سنة ١٣هـ ولاه أبو بكر رضي الله عنه صدقات قضاعة كما قاد الجيش الاسلامي في عهده إلى شرق الأردن لما عزم الصديق رضي الله عنه على فتح الشام. وقد أجرى عدة إصلاحات بالكوفة منها أنه :
- أنشأ دارا للأضياف.
- فرض لكل مملوك بالكوفة ثلاثة دراهم لكل شهر.
- كان يوسع على الاماء والعبيد من الفيء.

٣٨- القائمة مأخوذة من منهاج السنة ج ٣، ص ١٧٣ - ١٧٦.

٣٩- العواصم من القواصم، ص ٨٦.

٤٠- منهاج السنة ج ٢، ص ١٧٩.

٤١- العواصم من القواصم ص ٨٥.

٢- بشأن بعض الصحابة رضي الله عنهم :

* اتهم عثمان رضي الله عنه بإجلاء ونفي أبي ذر رضي الله عنه خارج المدينة بعيدا عن الناس عقابا له على دعوته التي تحرض الناس على عثمان رضي الله عنه وولاته !

وثمة رواية تنفي هذا الاتهام، أوردها ابن خلدون في كتاب العبر، وهي : «أن أبا ذر استأذن عثمان رضي الله عنه في الخروج من المدينة. وقال : إن رسول الله ﷺ أمرني أن أخرج منها إذا بلغ البناء سلعا (جبل بالمدينة)، فأذن له ونزل الربذة وبنى مسجدا وأقطعه عثمان رضي الله عنه صِرْمَةً(*) من الابل، وأعطاه مملوكين، وأجرى عليه رزقا، وكان يتعاهد المدينة، وبين المدينة والربذة ثلاثة أميال»(٤٢). قال ياقوت الحموي في معجم البلدان : «والربذة من أحسن منزل في طريق مكة»(٤٣).

* كما اتهم بضربه عمارا رضي الله عنه. وسبب ذلك ما يرويه الطبري : «عن سعيد بن المسيب رضي الله عنه أنه كان بين عمار وعباس ابن عتبة بن أبي لهب خلاف حمل عثمان على أن يؤدبهما عليه بالضرب»(٤٤). ومثل هذا يحق لولي الأمر أن يفعله في مثل هذه الأحوال. وكم فعل عمر بن الخطاب مثل ذلك بأمثال عمار ومن هم خير من عمار رضي الله عنهم.

٣- بشأن سياسته في مجالات أخرى :

بعد حرب الشائعات التي شنها السبئيون على عثمان رضي الله عنه وولاته، توجهت فرقة منهم إلى المدينة عاصمة الخلافة قصد مناقشة عثمان رضي الله عنه لفضحه واستمالة الناس إلى جانبهم. وقد فند عثمان رضي الله عنه اتهاماتهم بحجج ساطعة أمام الجماهير الاسلامية كما توضح ذلك الرواية الموثقة التي أوردها الطبري : «أرسل عثمان رضي الله

٤٢- العبر، ج ٢ - ص ١٣٩.

٤٣- انظر العواصم، هامش، ص٧٦.

* - الصرمة : القطعة من الابل ما بين العشرين إلى الثلاثين على قول.

٤٤- تاريخ الأمم والملوك، ج ٣ - ص ٤٢٨.

عنه إلى البصريين والكوفيين ونادى : الصلاة جامعة -وهم عنده وفي أصل المنبر- فأقبل أصحاب رسول الله ﷺ حتى أحاطوا بهم، فحمد الله وأثنى عليه وأخبرهم خبر القوم . . . ثم قال : إن هؤلاء ذكروا أمورا قد علموا منها مثل الذي علمتم إلا أنهم زعموا أنهم يذاكرونيها ليوجبوها علي عند من لا يعلم .

* قالوا : أتم الصلاة في السفر، وكانت لا تتم، ألَا وأني قدمت بلدا فيه أهلي، ونويت الاقامة . فأتممت لهذين الأمرين، أو كذلك ؟ قالوا : اللهم نعم .

* وقالوا : حميت الحمى، وإني والله ما حميت، حُمي قبلي، والله ما حموا شيئا لأحد، ما حموا إلا ما غاب عليه أهل المدينة، ثم لم يمنعوا من رعيه أحدا . واقتصروا لصدقات المسلمين يحمونها لئلا يكون بين من يليها وبين أحد تنازع، ثم ما منعوا ولا نحوا منها أحدا إلا من ساق درهما، وما لي من بعير غير راحلتين، وما لي ثاغية ولا راغية[٤٥]، وإني قد وليت وإني أكثر العرب بعيرا وشاة، فما لي اليوم شاة ولا بعير غير بعيرين لحجّي أكذلك ؟ قالوا : اللهم نعم .

* وقالوا : استعملت الأحداث، ولا استعمل إلا مجتمعا محتملا مرضيا، وهؤلاء أهل عملهم فسلوهم عنهم، وهؤلاء أهل بلدهم، وقد ولى من قبلي أحدث منهم[٤٦]، وقيل في ذلك لرسول الله ﷺ أشد مما قيل لي في استعماله أسامة، أكذلك ؟ قالوا : اللهم نعم .

* وقالوا : إني رددت الحكم، وقد سيّره رسول الله ﷺ إلى الطائف ثم رده، فرسول الله ﷺ سيّره، ورسول الله ردّه، أكذلك ؟ قالوا : اللهم نعم .

* وقالوا : إني أعطيت ابن سرح ما أفاء الله عليه، وإني إنما نفلته خمس ما أفاء الله عليه من الخمس، فكان مائة ألف، وقد أنفذ مثل ذلك أبو بكر وعمر، فزعم الجند أنهم يكرهون ذلك، فرددته عليهم وليس ذلك لهم، أكذلك ؟ قالوا : اللهم نعم .

٤٥- إشارة إلى أنه لا يملك غنما ولا إبلا، فالثغاء : صوت الغنم، والرغاء : صوت الابل .

٤٦- إشارة إلى تولية الرسول ﷺ لأسامة بن زيد رضي الله عنه .

* وقـالـوا : إني أحب أهل بيتي وأعطيهم، فأما حبي فإنه لم يمل معهم على جور، بل أحمل الحقوق عليهم، وأما اعطاؤهم، فإني أعطيهم من مالي، ولا أستحل أموال المسلمين لنفسي، ولا لأحد من الناس. وقد كنت أعطي العطية الكبيرة الرغيبة من صلب مالي أزمان رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر، وأنا يومئذ شحيح حريص، أفحين أتيت على أسنان أهل بيتي وفني عمري، وودعت الذي لي في أهلي قال الملحدون[٤٧] ما قالوا؟

وإني والله ما حملت على مصر من الأمصار فضلا[٤٨] فيجوز ذلِك لمن قاله، ولقد رددته عليهم، وما قدم علي الا الأخماس، ولا يحل لي منها شيء، فولي المسلمين وضعها في أهلها دوني، ولا يتلفت من مال الله بفلس فما فوقه، وما اتبلغ منه ما آكل إلا مالي.

وقـالوا : أعطيت الأرض رجالا، وإن هذه الأرضين شاركهم فيها المهاجرون والأنصار أيام افتتحت فمن أقام بمكان من هذه الفتوح فهو إسوة أهله، ومن رجع إلى أهله لم يُذهب ذلك ما حوى الله له، فنظرت في الذي يصيبهم مما أفاء الله عليهم، فبعته لهم بأمرهم من رجال أهل عقار ببلاد العرب، فنقلت إليهم نصيبهم فهو في أيديهم دوني.

ولانت حاشية عثمان لأولـئك الطوائف وأَبى المسلمون إلا قتلهم، وأبى عثمان إلا تركهم»[٤٩].

وقد استنتج محمد منير الغضبان من هذا النص بعض ملامح سياسة عثمان بن عفان رضي الله عنه في شتى المجالات، فقال :

ـ **سيـاستـه المـاليـة** : فعثـمان رضي الله عنـه يفـرق بين ماله ومال المسلمين، فلا يستحل من مال المسلمين درهما وما دونه، بينما بقي يعطي من ماله حتى نفد، ومن أرضه حتى نفدت، فصار فقيرا لا يملك إلا بعيرين لحجه وهو الذي كان أغنى أغنياء مكة والمدينة.

٤٧- المائلون عن الحق والصواب، يقال في اللغة لحد وألحد بمعنى مال.

٤٨- أي انه لم يفرض أي ضريبة أو إتاوة على أي مصر من الأمصار الاسلامية.

٤٩- تاريخ الأمم والملوك، ج ٤، ص ٣٥٤ - ٣٤٨.

- **سياسته الزراعية** : فعثمان رضي الله عنه يرفض أن تبقى أراض في بلاد الفتح عطلا لا تنتج، وبورا لا تزرع بحجة ملكيتها لبعض الفاتحين، فيكون الأولى -بلا شك- بيع تلك الأراضي لمن يعمل بها ويسلم ثمنها لأصحابها الأصليين.

- **سياسته الاقتصادية** : فهو يحمي الأرض من أرض المسلمين لابل الصدقة ولفقراء المسلمين يرعون بها ماشيتهم، ليمنع أي تسلط من الجيش أو رجال الحكم على أرض الناس لئلا ينتهبوها (بحجة المصلحة العامة)، بل ويدعها مشاعة ليستفيد منها كل محتاج أو مضطر لرعي، إبله بينما يمنع ذلك الحمى عن أغنياء المسلمين لأنه بإمكانهم تأمين الأرض الرعوية اللازمة لإبلهم وماشيتهم.

- **سياسته العسكرية** : هذه السياسة تؤمن باغداق المال على القائد العسكري حتى يعف عن مال جنده، فلقد أعطى ابن أبي سرح خمس الخمس المخصص لولي الأمر ليكون في مركز ولايته كهفا للمحتاجين وملاذا للقاصدين.

- **سياسته الادارية** : هذه السياسة تقوم على تحريك الطاقات، والاستفادة من عنصر الشباب المتوثب المنطلق، وتوجيه هذه الطقات للفتوح في أقصى الأرض وللابداع في عبقرية القيادة والتنظيم.

- **سياسته النفسية** : وقد استخدمها مع رعيته الذين أحبهم وأحبوه، وأوطأ لهم كنفه حتى يتدخل المسلمون في شؤون خليفتهم ! ويعرض لهم الشك في نفل ابن أبي سرح، فيدفن الفتنة في مهدها، ويسترد خمس الخمس منه حتى يمنع القالة والريب من نفوسهم.

- **سياسته المنهجية** : فإن حمى فقد حمى من هو قبله : عمر أمير المومنين، بل ومنع عثمان نفسه وعبد الرحمن بن عوف من الرعي في حمى المسلمين لغناهما وقدرتهما على رعي إبلهما وماشيتهما في أرضهما.

وإن أعطى عثمان رضي الله عنه ابن أبي سرح، فلقد أعطى قبله أبو بكر وعمر رضي الله عنهما. وإن استعمل الشباب، فقد استعملهم قبله

رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر رضي الله عنهما. وإن جمع القرآن، فلم يجمعه إلا على رأي وبينة وملأ من أصحاب محمد ﷺ»[٥٠]

وأخيرا تظهر لنا عظمة عثمان رضي الله عنه في العفو عن معارضي سياسته، وإخلاء سبيلهم دون أن يلتجىء إلى النيل منهم مستغلا مركزه كخليفة وتأييد الأمة له.

وكان هذا الاعتراف كافيا لتسوية الأمور المائجة لولا أن السبئية لا تريد إصلاحا، بل تريد أن تهتز الأرض بالمسلمين حكاما ومحكومين.

٥٠- «معاوية بن أبي سفيان» لمحمد منير الغضبان، سلسلة «أعلام المسلمين» ٢١، ص ١٣٨ - ١٣٩.

الفصل الثالث

الجمل، وصفين

(من نتائج المؤامرة السبئية)

أ ـ وقعة الجمل :

تعتبر هذه الوقعة تطورا خطيرا في الأحداث ؛ لأنها أول معركة رفع فيها المسلمون السيوف في وجه إخوانهم في الدين، وقد تعرضت مواقف الصحابة فيها لكثير من التشويه واستغلت لأغراض خبيثة ! مما يجعل المسلم ملزما بالبحث عن التفسير الصحيح لما وقع بين هؤلاء الصحابة الأعلام رضي الله عنهم.

وفي رأينا أن السبب الأول والأخير في هذه الوقعة هو الاختلاف في الرأي بين الصحابة رضي الله عنهم، وأن استعدادهم للاستشهاد في سبيل ما يؤمنون به من الرأي هو الذي جعل خلافهم حادا وعنيفا، وان أصح ما يعتمد عليه في هذا الشأن هي رواية سيف بن عمر عن شيوخه (وهم أعرف الأخباريين بحوادث العراق) كما يقول محب الدين الخطيب[٥١]، والرواية أوردها الطبري وعنه نقلها كافة المؤرخين، فابن خلدون مثلا يقول : «هذا أمر الجمل ملخصا من كتاب أبي جعفر الطبري، اعتمدناه للوثوق به، ولسلامته من الأهواء الموجودة في كتب ابن قتيبة وغيره من المؤرخين»[٥٢].

وملخص رواية الطبري :

* أن عثمان رضي الله عنه قتل في الظروف المشار إليها، فبويع علي رضي الله عنه مذعنا لضغوط كبار الصحابة، وخوفا من ازدياد الفتنة.

٥١- العواصم من القواصم، هامش، ص ١٥٤.

٥٢- العبر ج ٢ ص ٤٥٢.

ومن الذين بايعوه طلحة والزبير.(٥٣) ويحلو لبعض المغرضين أن يقولوا : انهما بايعا مكرهين ! أو انهما بايعا من أجل الانتقام من قتلة عثمان رضي الله عنه، وكلا الأمرين غير صحيح ؛ إذ لو بايعا مكرهين، فبيعة المكره لا تجوز، ولو قيل : انهما بايعا للانتقام من الثوار ما صح ذلك في شروط البيعة، بل الصحيح أنهما بايعا بيعة شرعية صحيحة. ولما رأيا رضي الله عنهما أن عيون بعض السبئيين تتعلق بهما خرجا إلى مكة قطعا للشغب كما يقول ابن العربي وذلك بعد استئذان علي رضي الله عنه(٥٤)، وكان قد سبقهما إلى مكة أمهات المومنين رضي الله عنهن اللائي رحلن من أجل الحج، وفرارا من الفتنة كما أورد الحافظ ابن كثير(٥٥). ولما علمن بمقتل خليفة المسلمين، وقدم بذلك طلحة والزبير وغيرهما، وقع ذلك منهن موقعا سيئا، فاتفق الجميع على ضرورة القيام بأمر ما لانصاف الخليفة المظلوم. وبعد تبادل الآراء قرروا الخروج إلى البصرة بعد أن اقنعوا أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بالخروج معهم رجاء أن يرجع الناس إلى أمهم فيرعوا حرمة نبيهم، وهدفهم من وراء ذلك هو لمّ الشتات. ويزعم البعض أنهم ما خرجوا إلا لأنهم نازعوا عليا رضي الله عنه في الخلافة، وهذا ما نبذه العارفون بالأخبار، كما يقول ابن حجر : «إن أحدا لم ينقل أن عائشة ومَنْ معها نازعوا عليا في الخلافة، ولا دعوا إلى أحد منهم ليولوه الخلافة»(٥٦)، بل الذي حدث أنهم خالفوه في وجهة النظر حيث طالبوا بالقصاص من قتلة عثمان رضي الله عنه فورا. وعلى كل فقد سار ركبهم قاصدا البصرة حتى وصلوا إلى المربد واجتمعوا بالناس، وتبادلوا الخطب رغبة في الاصلاح، وكادوا يتفقون لولا أن المغرضين من قتلة عثمان رضي الله عنه كان يسوؤهم ذلك، وعلى رأس هؤلاء حكيم بن جبلة(٥٧) الذي كان له دور خطير في إشعال نار الفتنة بين أتباع أم المومنين رضي الله

٥٣- راجع ما أسلفناه عن بيعتهما لعلي رضي الله عنه في موضوع تولية علي رضي الله عنه، ص :

٥٤- العواصم من القواصم، ص : ١٤٣ : ١٤٥ .

٥٥- البداية والنهاية، ج ٧ ، ص ٢٢٩.

٥٦- فتح الباري، ج ١٣ ، ص ٤١ - ٤٢.

٥٧- ثبت أن ابن سبأ نزل عنده في البصرة حين كان يقوم بمساعيه التخريبية، وكان رئيس فرقة من قتلة عثمان رضي الله عنه، ومن الذين حصبوه بالحصى على المنبر، وقد عاد إلى البصرة بعد مقتله.

عنها، ووالي علي رضي الله عنه على البصرة عثمان بن حنيف[٥٨] الذي أفلت الزمام من يده وشكا أمره إلى الخليفة.

أما أمير المؤمنين علي رضي الله عنه فبعد أن بويع بالخلافة استنفر الناس وخرج من المدينة ليقترب من الشام ويتفاوض مع معاوية، وفي الطريق وصلت أنباء البصرة فخرج قاصدا إليها. وملخص اجتهاده رضي الله عنه أنه في حالة الارهاب التي كانت تسود المدينة لم يكن بإمكانه أن يقتص من قتلة عثمان، ولما انتقل إلى العراق انتقلوا معه ولما أصبحوا في منعة من أهليهم أصبح الموقف أعوص. وكان رضي الله عنه يعالج الموقف بحكمة، ويريد أن يتفق مع أصحاب الجمل (طلحة والزبير وعائشة رضي الله عنهم) على ما يمكن الاتفاق عليه. وقد سأله أحد أتباعه وهو في الطريق إلى البصرة: «يا أمير المؤمنين أي شيء تريد؟ وإلى أين تذهب بنا؟ فقال: أما الذي نريد وننوي فالاصلاح إن قبلوا منا وأجابوا إليه. قال: فإن لم يجيبوا إليه؟ قال: ندعهم بعذرهم ونعطيهم الحق ونصبر قال: فإن لم يرضوا قال: ندعهم ما تركونا، قال: فإن لم يتركونا؟ قال: امتنعنا منهم، قال: فنعم إذن»[٥٩]. ولما نزل رضي الله عنه بذي قار قام الصحابي الجليل القعقاع بن عمرو التميمي رضي الله عنه بالمساعي الحميدة، ولما أخبر عليا رضي الله عنه بوجهة نظر أصحاب الجمل وأنهم يحرصون على حقن دماء المسلمين سر بذلك، وخطب خطبة طويلة أوردها الطبري نجتزىء منها قوله بعد أن ذكر فضلا الاسلام، والإنعام على الأمة بالاجماع على الخلفاء السابقين قال: «ثم حدث هذا الحادث الذي جره على هذه الأمة أقوام طلبوا هذه الدنيا، حسدوا من افاء الله عليه على الفضيلة، وأرادوا رد الأشياء على أدبارها والله بالغ أمره ومصيب ما أراد ألا واني راحل غدا فارتحلوا، ألا ولا يرتحلن غدا أحد أعان على عثمان بشيء في شيء من أمور الناس، وليُغْنِ السفهاء عني أنفسهم»[٦٠].

٥٨- من الأنصار الأوسيين، شهد أحدا، واستعمله عمر رضي الله عنه على جزية وخراج أرض العراق، وعندما اختار علي رضي الله عنه ولاته في سنة 36 هـ ولاه على البصرة.

٥٩- تاريخ الملوك والأمم ج ٤، ص ٤٧٨.

٦٠- نفس المصدر.

وأحس أهل الفتنة أن الموقف يسير لغير صالحهم بعد أن عرفوا رأي علي رضي الله عنه الصريح فيهم فاجتمعوا وتداولوا الأمر فيما بينهم فكان مما اقترحه عليهم ابن سبأ «يا قوم إن عزكم في خلطة الناس فصانعوهم وإذا التقى الناس غدا فانشبوا القتال ولا تفرغوهم للنظر، فإذا من أنتم معه لا يجد بدا من أن يمتنع، ويشغل الله عليا وطلحة والزبير ومن رأى رأيهم عما تكرهون فابصروا الرأى وتفرقوا عليه والناس لا يشعرون»(٦١).

ثم قصد علي رضي الله عنه البصرة والتقى بطلحة والزبير رضي الله عنهما وتعرف على رأيهما فوجد أن الأمور كلها تسير نحو الانقشاع، واتفقوا على اللقاء في الغد لتدبير الأمر ففرح الناس وباتوا أحسن ليلة باتوها في تلك الفترة وأما الذين أثاروا أمر عثمان رضي الله عنه فيقول الطبري عنهم بأنهم : «باتوا شر ليلة باتوها قط، قد أشرفوا على الهلكة، وجعلوا يتشاورون ليلتهم كلها، حتى اجتهدوا على انشاب الحرب في السر واستسروا بذلك خشية أن يفطن بما حاولوا من الشر فغدوا مع الغلس وما يشعر بهم جيرانهم، انسلوا إلى ذلك الأمر انسلالا، وعليهم ظلمة فوضعوا في الناس السلاح، فثار أهل البصرة، وثار كل قوم في وجوه أصحابهم الذين بهتوهم»(٦٢).

وهكذا ظن كل فريق أن الفريق الآخر قد غدر به، فنشبت الحرب واقتتل الناس قتالا مريرا، أصيب فيه طلحة رضي الله عنه بسهم طائش جرحه ثم توفي في دار البصرة على الأصح. أما الزبير فقد اعتزل الفتنة وقفل راجعا إلى المدينة فتبعه عمرو بن جرموز وغدر به فقتله، وأمرت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنه كعب بن المسور(٦٣) أن يرفع المصحف فقتله السبئيون خوفا من الصلح، واستمر القتال فكان مأساة لم يشهد المسلمون لها مثيلا، ولكنها كانت حربا غريبة حقا تجلى فيها الصدق والوفاء والرحمة فبانتهائها دخلت أم المؤمنين رضي الله عنها البصرة وجمع

٦١- المصدر السابق.

٦٢- المصدر السابق.

٦٣- هو كعب بن المسور الأزدي أول من تولى القضاء للمسلمين على البصرة في عهد عمر رضي الله عنه، أسلم أيام الرسول ﷺ ولكنه لم يره.

علي القتلى من الطرفين وصلى عليهم ودعا لهم بالجنة ثم انتهى إلى عائشة في دار عبد الله بن خلف فقال: «أي أم يغفر الله لنا ولكم، قالت: غفر الله لنا ولكم»(٦٤) يا بني تعتب بعضنا على بعض استبطاء واستزادة، فلا يعتدن أحد منكم على أحد بشيء بلغه من ذلك. إنه والله ما كان بيني وبين علي في القديم إلا ما يكون بين المرأة وأحمائها(٦٥) وإنه عندي على معتبتي من الأخيار» وقال علي رضي الله عنه: «يا أيها الناس، صدقت والله وبرت، ما كان بيني وبينها إلا ذلك وإنها لزوجة نبيكم ﷺ في الدنيا والآخرة»(٦٦)، وقد حزن كل من علي وعائشة رضي الله عنهما وتأسفا على ما حصل، فكان يقول كل منهما: «والله لوددت أني مت قبل هذا اليوم بعشرين سنة»(٦٧)

ب ـ وقعة صفين

كان من الطبيعي أن تتعدد الآراء والاجتهادات في كيفية حل الأزمة التي أوشكت أن تجزىء العالم الاسلامي وتطمس نور الاسلام بعد مقتل عثمان رضي الله عنه تلك القتلة البشعة. فكان أن اختلفت الحلول في جو مشحـون بالتوتر والكآبة ساعد عليه التباعد الحاصل بين الأقطار بحيث تقدر المسافة الزمنية بين الشام والمدينة ـعلى سبيل المثال ـ بشهر ذهابا وإيابا. وهي مسافة كفيلة بأن تجعل لكل من الطرفين رأيا مغايرا للآخر في النـظر للحـدث الدامي، بالاضافة إلى تفرق الصحابة في الأمصار بين البصرة والكوفة ومكة والشام وهذه الأخيرة يستوطنها وحدها أزيد من مائة صحابي وكل صحابي أو مجموعة من الصحابة يرى رأيه مستندا لفقهه واجتهاده.

وقد تجمعت آراء الصحابة المتباينة في حلين حاسمين طرحا على الساحة:

٦٤- تاريخ الأمم والملوك ج ٤ - ص ٥٣٤.

٦٥- حمُ المرأة وحَموها وحَماها وحَمْها وحمؤها: أبو زوجها ومن كان من قبله والجمع احماء (القاموس).

٦٦- نفس المصدر.

٦٧- نفس المصدر.

١- الحل الأول يرى أصحابه ضرورة أخذ القصاص من قتلة عثمان رضي الله عنه لتعود للخلافة حرمتها وللاسلام هيبته وليثأر للخليفة المظلوم ولينال الظالم ما يستحق وقد اطمأن إلى هذا الحل كل من عائشة وطلحة والزبير رضي الله عنهم ثم جاء من بعدهم معاوية رضي الله عنه فتمسك به كموقف نهائي.

٢- أما الحل الثاني فيرى أصحابه ضرورة توحيد العالم الاسلامي ولم شتاته، والقضاء على مادة الفتنة المبثوثة في الأقطار الاسلامية، وتأليف القلوب النافرة المنخدعة، بأخذ البيعة أولا ثم بعد ذلك يقتص من القتلة وهو رأي علي ومن معه من كبار الصحابة رضي الله عنهم.

وهكذا تباينت الاجتهادات لدى قوم رباهم الاسلام على حرية الاجتهاد وحرية الانتقاد، وعلمهم كيف يقدمون أرواحهم فداء لما يؤمنون به ويعتقدونه. وما كان هذا الخلاف ليؤدي إلى التصادم لولا أنه كان للثوار مصلحة في استعار النار وتعميق هوة الخلاف.

ولدينا رواية توضح كلا الرأيين ومنها: «واجتمع إلى علي بعدما دخل طلحة والزبير في عدة من الصحابة، فقالوا: يا علي إنا قد اشترطنا إقامة الحدود، وإن هؤلاء القوم قد اشتركوا في دم هذا الرجل، وأحلوا بأنفسهم فقال لهم: يا إخوتاه، إني لست أجهل ما تعلمون، ولكن كيف نصنع بقوم يملكونا ولانملكهم؟ ها هم هؤلاء قد ثارت معهم عبدانكم، وثابت إليهم أعرابكم، وهم ضلالكم يسومونكم ما شاؤوا. فهل ترون موضعا لقدرة على شيء مما تريدون»[(٦٨)].

وقد حصل هذا إبان مفاوضات الصلح السابقة لوقعة الجمل، وما اشترطه طلحة والزبير وغيرهما على علي بن أبي طالب رضي الله عنه هو نفس ما تمسك به معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه وأصر عليه، ترى ما الذي دفعه إلى هذا الاصرار؟

٦٨- تاريخ الأمم والملوك ج ٣، ص ٤٥٨.

اجتهاد كل من علي ومعاوية رضي الله عنهما :

لن نكون موضوعيين في تقديم التفسير الصحيح لتمسك معاوية رضي الله عنه برأيه إلا إذا استعرضنا الملامح العامة للعالم الاسلامي بعد مقتل عثمان رضي الله عنه إذ صارت أرضيته مضطربة ولزجة تنزلق فيها الآراء والاجتهادات بسرعة. فهناك : احتلال العاصمة، ومقتل الخليفة جهارا نهارا، وسيطرة الثوار على الأوضاع بالمدينة ثم الظروف الغامضة لبيعة علي رضي الله عنه (كما يتصور أهل الشام)، هذا بالاضافة إلى الصراع الدموي بين الصحابة رضي الله عنهم في معركة الجمل، وكون الخليفة الجديد لم يأخذ بالقصاص.

هذه هي الملامح العامة لشريط الأحداث، كما رآها أهل الشام الذين امتنعوا عن تقديم البيعة لعلي رضي الله عنه :

- لكونه في نظرهم لم يبايع بيعة جماعية لأن جل الصحابة متفرقون في الأمصار.
- ولكون الثوار مندسين في جيشه.
- ولعجزه عن أخذ القصاص العادل من الخونة المجرمين !

وثمة رواية موثوقة لابن كثير تعكس وجهة نظر الصحابيين الجليلين علي ومعاوية رضي الله عنهما يقول فيها : «وخرج أبو الدرداء وأبو أمامة فدخلا على معاوية فقالا له : يا معاوية، علام تقاتل هذا الرجل ؟ فوالله إنه أقدم منك ومن أبيك إسلاما وأقرب منك إلى رسول الله ﷺ وأحق بهذا الأمر منك، فقال أقاتله على دم عثمان، وأنه آوى قتلته، فاذهبا إليه، فقولا له : فليقدنا[69] من قتلة عثمان، ثم أنا أول من بايعه من أهل الشام. فذهبا إلى علي فقالا له ذلك. فقال : هؤلاء الذين تريان فخرج خلق كثير، فقالوا : نحن قتلة عثمان، فمن شاء فليرمنا»[70]

٦٩- القود : القصاص.

٧٠- أورده ابن ديزيل، وقد أورد الذهبي في كتابه «تذكرة الحفاظ» ما يلي : «ابن ديزيل الحافظ الرحال أبو إسحاق إبراهيم بن الحسين الكسائي الهمداني المتوفى سنة ٢٨٢ هـ قال صالح أحمد (محدث همذان) : سمعت علي بن قيس يقول الاسناد الذي يأتي به ابن ديزيل لو كان فيه أن لا يؤكل الخبز لوجب تركه لصحة إسناده» وردت هذه الرواية في البداية والنهاية ج ٧ ص ٢٦٢.

وهذا النص يبرر السبب الذي دفع بمعاوية إلى اتخاذ موقفه من بيعة علي بإعلانه الرفض، والاصرار على المطالبة بدم عثمان رضي الله عنه أولا . وقد طلب القصاص من قتلة عثمان رضي الله عنه باعتباره ابن عم الخليفة المقتول وولي أمره، وبالتالي فهو أحق الناس بالمطالبة بدمه، ولعل مما دعم وعزز موقفه هذا ما يلي :

- صورة القتلة التي تعرض لها عثمان رضي الله عنه في عقر داره، والتي ظهرت بشاعتها في قميصه الملطخ بالدماء، وفي أصابع زوجته نائلة، وقد علق القميص على منبر دمشق واجتمع عليه ستون ألفا من الشيوخ يبكون وينوحون وأقسم أهل الشام ألا يمسوا الماء إلا لجنابة أو وضوء. . .

- ظن أهل الشام أن أهل المدينة تهاونوا في نصرة عثمان رضي الله عنه وفي الدفاع عنه. وهذا الوهم عائد إلى كونهم لم يعايشوا ظروف احتلال المدينة وقتل عثمان رضي الله عنه.

- علم أهل الشام بأن عددا من الصحابة لم يبايعوا عليا كسعد بن أبي وقاص (من رجال الشورى وقد كان غائبا) وأسامة بن زيد. . . وغيرهما من الصحابة المتفرقين في الأمصار.

- قولهم بأن عليا لمن يتمكن من القبض على زمـام الأمـور وأخـذ القصاص من قتلة عثمان رضي الله عنه، ويؤكد ذلك في نظرهم خروج عدد من كبار الصحابة على علي رضي الله عنه كما ظهر في وقعة الجمل.

هذه بعض الدوافع التي دفعت بمعاوية وغيره من الصحابة رضي الله عنهم كعمرو بن العاص[٧١]. . . إلى المطالبة بأخذ القصاص أولا ثم النظر بعد ذلك في بيعة علي رضي الله عنه.

٧١- عمرو بن العاص بن وائل القرشي. أسلم قبل الفتح في صفر ٨هـ وقيل بين الحديبية وخيبر، ولاه الرسول ﷺ غزاة ذات السلاسل، وقال عنه : «أسلم الناس وآمن عمرو» استعمله على عمان. وكان من أمراء الأجناد في الجهاد بالشام زمن عمر الذي ولاه فلسطين، فتح مصر وولي مرها مات حوالي سنة 43هـ (انظر الإصابة ج ٣، ص ٢).

أما علي رضي الله عنه فكان يرى ضرورة أخذ البيعة العامة أولا لتوحيد الدولة الاسلامية المجزأة ثم بعد ذلك يؤخذ القصاص من القتلة. وثمة أسباب دفعته إلى التأني وتغليب منطق العقل على العاطفة، منها :

١- كثرة الثوار واختلاطهم بالجيش الاسلامي.

٢- كون الثوار بعد أن ساروا مع علي إلى العراق، في معقل قوتهم وعنجهية قبائلهم ولهذا فقتلهم قد يفتح عليه بابا لا يستطيع سده بعد ذلك.

٣- كون الضلالات السيئة مازالت تغمر قلوب بعض الناس.

٤- كون الأوضاع غير مستقرة بعد، فيجب الانتهاء من البيعة لتوحيد العالم الاسلامي، ولتأليف القلوب المتنافرة وجمع كلمة المسلمين وقطع دابر المؤامرة. وبعد ذلك يسهل أخذ القصاص من القتلة حين يتوحد الرأى العام الاسلامي. ويتفرق الثوار في أمصارهم.

وقد استغرب علي رضي الله عنه رفض معاوية رضي الله عنه بيعته باعتباره ليس إلا مجرد عامل على ولاية، وليس له إلا أن يطيع الخليفة بعد أن بويع بيعة شرعية من طرف أهل الحل والعقد. وهكذا فعلي رضي الله عنه ينطلق من منطلق عقلي -لا عاطفي- واع بحقيقة الأمور مدرك ما عليه الثوار من منعة وقوة وما أصاب قلوب الناس من تغيير بفعل الاشاعات السيئة، لذلك فالمسارعة لتوحيد العالم الاسلامي أمر لا مناص منه ولا تحتمل أي تأخير.

ولو أن عليا رضي الله عنه اتبع رأى معاوية رضي الله عنه وغيره وحاول أن يقضي على الثوار المندسين في جيشه -وهو أمر مستحيل- لزاد الطين بلة، لأن البصرة والكوفة مازالتا تحفلان بأتباعهم، وقد برهنت وقعة الجمل على ذلك. كما أن مصر تعج بالاتباع باعتبارها مقر الدعوة التخريبية ومنطلقها.

ولن يكون صنيع علي رضي الله عنه إذ ذاك إلا كصنيع من يقطع ذنب الأفعى ويترك رأسها. وفي هذا الصدد يقول أحمد راتب عرموش : «لقد كان موقف علي في غاية الوضوح، كان راغبا في إقامة الحدود وإنزال القصاص بمن يستحقه. وربما كان يخطط بينه

وبـين نفسه لذلك، لكن بعض زملائه من الصحابة أصروا على التدخل في الأمر، فهم حريصون على تطبيق ما أمر الله به. لكنهم على ما يبدو قد أسرفوا في ذلك. ومن هو في منظار المسؤولية يرى الأمور بمنظار غير الذي يراها به الآخرون، فتحتم وقوع الخلاف...»[٧٢].

وهكذا اختلف الصحابيان رضي الله عنهما في نظرتهما للأحداث وفي كيفية التصرف في هذه الظروف الحرجة. وقد ذهب معظم الأئمة إلى كون علي رضي الله عنه مصيبا في اجتهاده. لذلك فغزو الشام الممتنع عن البيعة أمر لا مفر منه قبل أخذ القصاص.

نشوب الحرب :

كانت الحرب التي جرت بين الطرفين حربا مثالية -إن صح التعبير- لم يشهد لها التاريخ مثيلا، ويتضح هذا من خلال التعليمات الحربية الأخلاقية التي التزمها كلا الطرفين، فقد أوصى علي رضي الله عنه جنده بما يلي: «لا تقاتلوا القوم حتى يبدأوكم، فأنتم بحمد الله على حجة وترككم إياهم حتى يبدأوكم حجة أخرى لكم، فإذا قاتلتموهم فهزمتموهم، فلا تقتلوا مدبرا ولا تجهزوا على جريح ولا تكشفوا عورة ولا تمثلوا بقتيل، فإذا وصلتم إلى رحال القوم فلا تهتكوا سترا ولا تدخلوا دارا إلا بإذن، ولا تأخذوا شيئا من أموالهم، ولا تهيجوا امرأة بأذى وإن شتمن أعراضكم وسببن أمراءكم»[٧٣].

ولم تأت الحرب اندفاعا أو عصبية (أو عاطفة أو جزافا) بل جاءت عن بصيرة ويقين وإصرار على الموقف بعد مرور عدة أشهر في محاولة دائبة للصلح[*] وقد مرت هذه الحرب بعدة خطوات نذكر منها :

٧٢- الفتنة ووقعة الجمل ص ٢٣.

٧٣- تاريخ الأمم والملوك ج ٤ ص ٦.

* - البداية والنهاية ج ٧ - ص ٢٧٧.

١- ابتدأت حروب جانبية بين فصائل الجيشين خلال شهر ذي الحجة (٣٦ هـ) بكامله وكانت هذه الحروب بعد الاختلاف على الماء، حيث روى أبو السلط الحضرمي قائلا: «حُلنا بين أهل العراق وبين الماء، فأتانا فارس ثم حسر فإذا هو الأشعث بن قيس، فقال: الله الله يا معاوية في أمة محمد ﷺ، هبوا أنكم قتلتم أهل العراق فمن للبعوث والذراري؟ قال معاوية: فماذا تريد: قال: خلوا بيننا وبين الماء. فقال لأبي الأعور[٧٤]: خل بين إخواننا وبين الماء»[٧٥]. وهذا المنع كما يقول محب الدين الخطيب إنما التجأ إليه معاوية رضي الله عنه ليذكر عليا رضي الله عنه ومن معه بما حصل لعثمان رضي الله عنه حينما منع عنه الماء قبل مقتله، فهو رمز وعتاب ملفوف لما وقع سابقا.

٢- عادت الهدنة وعادت المراسلات خلال شهر محرم من العام الجديد.

٣- احتدمت الحرب بعنف يوم الأربعاء أول صفر (٣٧ هـ) واستمرت في هولها حتى يوم الثلاثاء دون أن يظهر أحد من الفريقين على الآخر.

٤- كان يوم الأربعاء الثامن من صفر أشد هولا وفيه تم إحراز النصر من أهل العراق على أهل الشام.

٥- واستمر القتال على عنفه وشدته حين استطاع أهل الشام أن يشنوا هجوما ويكشفوا هيمنة جيش علي رضي الله عنه حتى إنه لم يبق معه غير ثلاث مائة - وفي هذه المرحلة كان مقتل عمار بن ياسر رضي الله عنه.

٦- واستمر القتال عنيفا شرسا حتى يوم الجمعة حين استعاد جيش علي قوته وصار أقرب إلى النصر[٧٦] ورغم شراسة القتال،

٧٤- هو أبو الأعور السلمي الذكداني، اسمه عمرو بن سفيان، كان من كبار قواد معاوية رضي الله عنه.

٧٥- سير أعلام النبلاء للذهبي - ج ٢ - ص ٢٧.

٧٦- انظر هذه الخطوات في كتاب (معاوية) لمحمد منير الغضبان ص ١٩٥ و١٩٦.

فقد سادته مواقف فريدة من الرحمة، فقد ذكر الحافظ ابن كثير عن عبد الرحمان بن زيادة الشعباني «قاضي إفريقية» : قال : «كان أهل صفين عربا يعرف بعضهم بعضا في الجاهلية فالتقوا في الاسلام معهم على الحمية وسنة الاسلام فتصابروا واستحيوا من الفرار وكانوا إذا تحاجزوا دخل هؤلاء في عسكر هؤلاء، وهؤلاء في عسكر هؤلاء فيستخرجون قتلاهم فيدفنوهم»(*).

لم يكن الفرار ممكنا لأي من الفريقين لأن كلا منهما واثق من صواب مواقفه واستمرار القتال يعني فناء المسلمين جميعا.[77] هنا ظهرت فكرة رفع المصاحف وتحكيم القرآن حقنا للدماء وقطعا لدابر الفتنة.

التحكيم[78] :

روايات التحكيم عديدة ومتضاربة نظرا لما حصل فيها من دس وكذب وتزييف وأبرزها روايات أبي مخنف الشيعي الكذاب التي تحمل أقبح الصور عن التحكيم والخلافة. ومما يؤلم أن هذه الصور هي العالقة بأذهان الناس ومنها على سبيل المثال :

١- أن عمرو بن العاص دعا إلى رفع المصاحف خدعة خدع بها عليا رضي الله عنه وأن عليا حذره من ذلك.

٢- ثانيا أن عمرو بن العاص (الثعلب الداهية) غدر بأبي موسى الأشعري (البليد المغفل) !!

٣- أن عليا رضي الله عنه كان إذا قنت لعن معاوية وعَمْراً رضي الله عنهما. وكذلك يفعل معاوية !!

٤- وأن أبا موسى شبه أثناء الاجتماع عمرا (بالكلب) وأن عمرا شبه أبا موسى (بالحمار) !!! ؟

---

*- البداية والنهاية ج ٧ - ص ٢٧٧.

٧٧- قتل في هذه الحرب سبعون ألفا وكانت الوقائع تسعين وقعة في مائة وعشرة أيام (هامش ١٦٣ من العواصم . .).

٧٨- كتب كتاب التحكيم يوم ١٣ صفر سنة ٣٧هـ على أن يعلن الحكمان حكمهما في رمضان بدومة الجندل بمكان منها يسمى أذرح (هامش ص ١٦٣ من كتاب العواصم . . .).

وكل هذه الروايات مكذوبة وضعيفة ومتهافتة لضعف رواتها ؟ كأبي مخنف الشيعي، وأبي خباب الكلبي[٧٩] وثمة رواية صحيحة رواها الأئمة الثقات الأثبات كما ذكر ابن العربي في العواصم من القواصم ص ١٧٨ . وأوردها الحافظ الدارقطني[٨٠] بسنده عن الحصين بن المنذر قال : «لما عزل عمرو معاوية جئت فضربت الفسطاط قريبا من فسطاط معاوية فبلغ نبأي معاوية، فأرسل إلي وقال إنه بلغني عن عمرو كذا وكذا، فاذهب فانظر ما هذا الذي بلغني عنه، فأتيته فقلت : أخبرني عن الأمر الذي وليت أنت وأبو موسى كيف صنعتما فيه ؟ فقال عمرو : قد قال الناس في ذلك ما قالوا. والله ما كان الأمر على ما قالوا، ولكن قلت لأبي موسى : ما ترى في هذا الأمر ؟ قال : أرى أنه من النفر الذين توفي رسول الله وهو عنهم راض. قلت : فأين تجعلني أنا ومعاوية ؟ قال : أن يستعن بكما ففيكما معونة، وإن يستغن عنكما، فطالما استغنى أمر الله عنكما. قال فأتيته فأخبرته أن الذي بلغه كان كما بلغه»[٨١]

وثمة رواية أخرى للمؤرخ المحدث خليفة بن خياط[٨٢] أحد شيوخ البخاري يقول فيها : «وفي سنة ٣٧ هـ اجتمع الحكمان : أبو موسى الأشعري من قبل علي وعمرو بن العاص من قبل معاوية بدومة الجندل في شهر رمضان ويقال بأذرج. فبعث علي بن أبي طالب، ابن عباس ولم يحضر، وحضر معاوية فلم يتفق الطرفان على شيء وافترق الناس[٨٣] . . . » .

٧٩- أبو خباب الكلبي خال أبي زرعة : صدوق مدلس. قال النسائي : ضعيف، وقال يحيى بن سعيد القطان : لا استحل أن أروي عنه.

٨٠- هو أبو الحسن علي بن عمر بن أحمد البغدادي الشهير بالدارقطني نسبة إلى دار القطن ببغداد ولد سنة ٣٠٦هـ وتوفي سنة ٣٨٥هـ كان من أئمة فقهاء الشافعية قال عنه الحافظ عبد الغني ابن سعيد : أحسن الناس كلاما على حديث رسول الله ﷺ ثلاثة : علي بن المديني في وقته، وموسى بن هارون في وقته، والدارقطني في وقته.

٨١- عن العواصم من القواصم ص ١٧٨ - ١٧٩ .

٨٢- هو أحد أوعية العلم. قال عنه ابن عدي : هو صدوق مستقيم الحديث من متيقظي رواة السنة، توفي عام : ٢٤٠هـ، وله تاريخ يعرف بتاريخ خليفة بن خياط.

٨٣- تاريخ خليفة بن خياط تحقيق د. اكرم ضياء العمري، نقلا عن : معاوية بن أبي سفيان - صحابي كبير وملك مجاهد - ص ٢٢١.

يتضح من الروايتين أن الحكمين اجتمعا بدومة الجندل، ولم يتفقا على شيء بل رجعا من غير تفاهم. ويمكن أن نستأنس بقول محب الدين الخطيب في تعليقه على روايات التحكيم الضعيفة: «من الحقائق ما إذا أسيء التعبير عنه وشابته شوائب المغالطة يوهم غير الحقيقة، فينشأ عن ذلك الاختلاف في الحكم عليه، ومن ذلك حادثة التحكيم وقول المغالطين إن أبا موسى وعمرا اتفقا على خلع الرجلين، فخلعهما أبو موسى، واكتفى عمرو بخلع علي دون معاوية! وأصل المغالطة أن معاوية رضي الله عنه لم يكن خليفة ولا هو ادعى الخلافة يومئذ حتى يحتاج عمرو إلى خلعها عنه، بل إن أبا موسى وعمرا اتفقا على أن يعهدا بأمر الخلافة على المسلمين إلى الموجودين على قيد الحياة من أعيان الصحابة رضي الله عنهم. واتفاق الحكمين على ذلك لا يتناول معاوية لأنه لم يكن خليفة ولم يقاتل على الخلافة، وإنما كان يطالب بإقامة الحد الشرعي على الذين اشتركوا في قتل عثمان رضي الله عنه. فلما وقع التحكيم على إمامة المسلمين واتفق الحكمان على ترك النظر فيها إلى كبار الصحابة وأعيانهم رضي الله عنهم، تناول التحكيم شيئا واحدا هو الامامة. فالتحكيم لم يقع فيه خداع ولا مكر، ولم يتخلله بلاهة ولا غفلة. وكان يكون محلاً للبلاهة أو الغفلة أو المكر لو أن عمرا أعلن في نتيجة التحكيم أنه ولّي معاوية رضي الله عنه الخلافة، وهذا ما لم يعلنه عمرو ولا ادعاه معاوية رضي الله عنهما، ولم يغالط أبا موسى ولم يخدعه لأنه لم يعط معاوية شيئا جديدا ولم يقرر في التحكيم غير الذي قرره أبو موسى، ولم يخرج عما اتفقا عليه معا فبقيت العراق والحجاز تحت يد علي رضي الله عنه، والشام تحت يد معاوية رضي الله عنه وتعلقت الامامة بما سيكون من اتفاق أعيان الصحابة رضي الله عنهم ليروا فيه رأيهم متى شاءوا وكيف شاءوا»[٨٤].

من نتائج التحكيم : ظهور الخوارج :

ومع بدء التحكيم حاول السبئيون إرغام علي رضي الله عنه على رفضه كي تظل الحرب مشتعلة ويحترق بلهبها المسلمون، لكن إصرار علي

٨٤- العواصم من القواصم هامش ص ١٧٤، ١٧٥.

رضي الله عنه على التحكيم قصد الصلح ووقف القتال دفعهم إلى إعلان العصيان والتمرد والخروج عليه، وقد بدأ خروجهم[٨٥] بتوجيه التهم للمسلمين ولعلي رضي الله عنه باعتبارهم جبناء منافقين، ثم اتهامهم بالكفر البواح !! لأنهم حكموا في أمر الله رأى البشر. وبعد ذلك تجمعوا على شكل طائفة مارقة بعد أن جمعهم أحد زعماء السبئية وهو حرقوص بن سهير السعدي[٨٦]. وفي هذا الاطار يقول ابن خلدون: «ثم اجتمع الخوارج في منزل عبد الله بن وهب الراسبي فوعظهم وحرضهم على الخروج إلى بعض النواحي لانكار هذه البدع، وتبعه حرقوص بن زهير في المقالة، فقال حمزة بن سنان الأسدي: الرأي ما رأيتم، لكن لابد لكم من أمير وراية، فعرضوها على عبد الله بن وهب فأجاب فبايعوه لعشر خلون من شوال (37 هـ) (وكان يقال له ذو الثفنات). ثم اجتمعوا في منـزل شريح فتشاوروا وكتب ابن وهب إلى أهل البصرة منهم يستحثهم على اللحاق بهم[٨٧]....».

وحين تمادوا في عنادهم بقتلهم عبد الله بن خباب بن الارث وبقر بطن سريته إضافة إلى رفضهم الاقتناع بحجج علي وقبله ابن عباس رضي الله عنهما، كان هذا دافعا لحدوث موقعة النهروان التي أبيد فيها معظم الخوارج.

وهذا الشرخ الذي حدث في جند علي رضي الله عنه ازداد استفحالا برفضهم الانصياع لأوامره والتقاعس عن ذلك لكونهم ثكلوا في أقاربهم ورفاقهم بموقعة النهروان.

وهذا ما دفع بالخليفة علي رضي الله عنه إلى أن يقول بحزن: «ما يؤخر أشقاها». والنص السابق الذي أورده ابن خلدون يضعنا أمام

٨٥- خرجوا على علي بمجرد ما قبل التحكيم كما في حديث أخرجه أبو يعلى بسند صحيح ونقله عنه ابن حجر الهيثمي في كتابه تطهير الجنان واللسان عن الخطور والتفوه بثلب سيدنا معاوية بن أبي سفيان، ٥٦.

٨٦- حرقوص هذا من بني تميم، وهو أحد كبار الثوار ومن زعماء فرقهم وممن كان له ضلع في قتل عثمان رضي الله عنه واشعال نار الفتنة.

٨٧- كتاب العبر لابن خلدون ج ٢

حقيقـة تستحق وقفـة متـأنية وهي أن ظهـور الخـوارج كان له ارتباط بالسبئية (٨٨). وأن ثمـة خيطا يربط بين الجـانبـين! وبـإمكان الباحث المنصف الامساك بذلك الخيط لتقديم تفسير جديد لظهور الخوارج على الساحة الاسلامية.

٨٨- من بين الثوار الذين ساهموا في تكوين فرقة الخوارج حرقوص وابن الكواء وهو عبد الله بن أبي أوفى الشيكري أحد القائمين بالفتنة على عثمان رضي الله عنه. وبعد صفين والتحكيم كان على رأس الخوارج.

حدود الدولة الاسلامية في



عهد عثمان رضي الله عنه



لائحة بأهم المصادر والمراجع المعتمد عليها في هذا البحث :

١ - إتمام الوفاء في سيرة الخلفاء لمحمد الخُضري - مطبعة الاستقامة بالقاهرة - الطبعة السابعة : ١٩٦٠.

٢ - البداية والنهاية لابن كثير - مطبعة السعادة بالقاهرة : 1358 هـ.

٣ - التاريخ الاسلامي لمحمود شاكر - المكتب الاسلامي - الطبعة الأولى : ١٩٨٠.

٤ - الخلافة ونشأة الأحزاب الاسلامية لمحمد عمارة - سلسلة كتاب الهلال - العدد : ٣٨٩ - مايو : ١٩٨٣ .

٥ - الاستيعاب في أسماء الأصحاب لابن عبد البر (على هامش الاصابة).

٦ - الاسلام لسعيد حوى - مكتبة وهبة القاهرة (بدون طبعة ولا رقم).

٧ - الاصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني - دار التراث العربي ببيروت - الطبعة الأولى.

٨ - الصواعق المحرقة في الرد على أهل البدع والزندقة لأحمد بن حجر الهيثمي - مكتبة القاهرة - الطبعة الثانية ١٩٦٥ .

٩ - العبر وديوان المبتدإ والخبر لابن خلدون - دار الفكر بلبنان - الطبعة الأولى : ١٩٨١.

١٠ - العواصم من القواصم في تحقيق مواقف الصحابة لابن العربي، تحقيق محب الدين الخطيب - المكتبة العلمية بلبنان : ١٩٨٣.

١١ - الفتنة ووقعة الجمل لأحمد راتب عرموش - دار النفائس ببيروت - الطبعة الأولى : ١٩٧٢.

١٢ - المؤامرة على الاسلام لأنور الجندي - دار الاعتصام - الطبعة الثانية ١٩٧٨.

١٣ - المساواة في الاسلام لعلي عبد الواحد وافي - سلسلة اقرأ - العدد : 108 - الطبعة السادسة : ١٩٧٢.

١٤ - تاريخ الأمم والملوك - دار المعارف : ١٩٦٠.
١٥ - تطهير الجنان واللسان عن الخطور والتفوه بثلب سيدنا معاوية بن أبي سفيان لابن حجر الهيثمي - مكتبة القاهرة - الطبعة الثانية : ١٩٦٥.
١٦ - عبقرية الصديق للعقاد : المجموعة الكاملة لمؤلفات العقاد - سلسلة العبقريات الاسلامية - المجلد الأول - دار الكتاب اللبناني - الطبعة الأولى ، ١٩٧٤.
١٧- عبقرية عمر للعقاد : المجموعة الكاملة لمؤلفات العقاد - سلسلة العبقريات الاسلامية - المجلد الأول - دار الكتاب اللبناني - الطبعة الأولى : ١٩٧٤.
١٨- فتح الباري لابن حجر العسقلاني - مكتبة الرياض الحديثة (بدون طبعة ولا رقم).
١٩- في التاريخ الاسلامي : فصول في المنهج والتحليل لعماد الدين خليل - المكتب الاسلامي - الطبعة الأولى : ١٩٨١.
٢٠- لسان العرب لابن منظور - دار المعارف بمصر - طبعة جديدة.
٢١- معاوية بن أبي سفيان : صحابي كبير وملك مجاهد لمحمد منير الغضبان - دار القلم بدمشق - الطبعة الأولى : ١٩٨٠.
٢٢- مقدمة ابن خلدون بتحقيق خليل شحاذة - دار الفكر بلبنان - الطبعة الأولى : ١٩٨١.
٢٣- منهاج السنة النبوية فى الرد على الشيعة والقدرية لابن تيمية - مطبعة بولاق بمصر: ١٣٢١هـ .
٢٤- نشأة الفكر الفلسفي في الاسلام لعلي سامي النشار - الجزء الأول - دار المعارف بمصر - الطبعة السابعة : ١٩٧٨.

المحتوى

الموضوع	الصفحة

بطاقة تعريف

الأستاذ اليزيد الراضي :

- من مواليد سنة **١٩٥٠** بإداوزكري، إقليم تارودانت.
- حاصل على الاجازة في الدراسات العربية، وعلى الاجازة في الحقوق (علوم قانونية).
- حاصل على دبلوم الدراسات العليا في الأدب.
- يعمل حاليا أستاذا بكلية الآداب بأكادير.
- من إنتاجه :
  - شعر داود الرسموكي (جمع وتحقيق ودراسة) [تحت الطبع].
  - أبو زيد التمنارتي وشعره [مخطوط].
  - بناء القصر، في أحكام القصر [مخطوط].
  - التبني في الاسلام [مخطوط].
  - مناقشة الفقيهين : الزمزمي محمد وحمدال الحاج محمد بن علي المتاكي حول الصلاة وراء المبتدع [مخطوط].
  - مناقشة ابن القيم والفقيه عبد الرحمن النتيفي حول فناء النار [مخطوط].
  - مجموعة محاضرات ومقالات.
  - ديوان شعر [مخطوط].

الأستاذ عبد الرحمان باحمان :

- من مواليد**١٩٤٧** بمنطقة وادي نون.
- درس بالمعهد الاسلامي بتارودانت حيث حصل على الباكلوريا (**١٩٨١**).
- خريج المركز التربوي الجهوي ـ شعبة الاجتماعيات (**١٩٨٣**).
- حاليا : حارس عام للخارجية بإعدادية المسيرة الخضراء بأسا.

الأستاذ جمال أمين :

- من مواليد ١٩٦٢ بتارودانت.
- درس بالمعهد الاسلامي بتارودانت، ثم بمركز تكوين الأطر بالقنيطرة، ثم بالمدرسة العليا للأساتذة بمكناس.
- له مقالات منشورة بالمجلات الوطنية.
- له مخطوطات أدبية :
  - إيقاع التغيير في الشعر الاسلامي المعاصر.
  - طاغور والتوجهات الايمانية في شعره.

الأستاذ محمد بوبلي :

- من مواليد ١٩٦ بحاحة، إقليم الصويرة.
- حفظ القران وتلقى العلم في المدارس العتيقة بحاحة، ثم حصل على الباكلوريا ١٩٧٨، والاجازة في الأدب العربي (١٩٨٣).
- يعمل حاليا أستاذا للغة العربية بثانوية محمد الخامس بتارودانت، وعضوا في لجنة تأليف الكتاب المدرسي للتعليم الأصيل، وواعظا بالمساجد تابعا للمجلس العلمي بتارودانت.